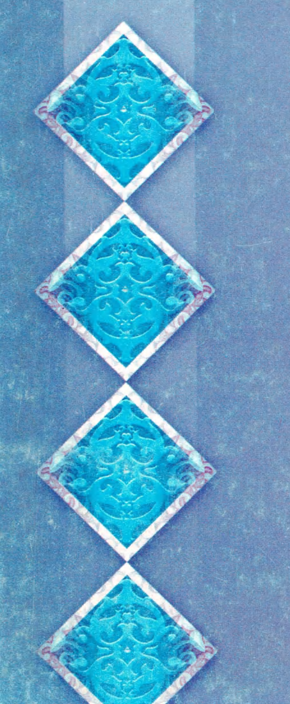
قَضَايَا نَقدِيَّة
فِي طَبَقَاتِ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ
لابن سَلَّامٍ الجُمَحِيِّ

إعداد

مُحمُود توْفِيق مُحَمَّد سَعد

أُسْتاذ البلاغة والنقد ورئيس القسم
فى كلّيَّة اللغة العرَبِيّة - جامعة الأزهر الشّريف
شَبين الكُوم - المَنُوفيّة



يطلب من
مكتبة علاء الدين
شبين الكوم - شارع جمال عبد الناصر ت: ٠٤٨/٢٣١٥٧٤٩

قَضَايَا نَقْدِيَّة
فِي طَبَقَاتِ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ
لابن سَلَّامٍ الجُمَحِيِّ

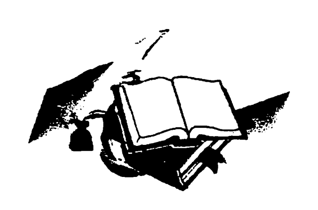
إعـــداد

مَحمُود توْفِيق مُحَمّد سَعد

أُستاذ البلاغة والنقد ورئيس القسم

في كلِّيَّة اللغةِ العربِيّة جامعة الأزهر الشّريف

شَبين الكوم - المَنُوفيّة



الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ ربِّ العَالَمِينَ ◆ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ ◆ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه مِلْءَ السّموات والأرضِ وما بينهما كما يحبُّ ربّنَا ويرضى .

اللّهمّ صلِّ وَسلِّم ، وبَارِكْ عَلَى عَبْدِكَ وَنَبِيِّك ورسُولك مُحمّد بن عبد الله وعَلَى آله وصَحْبِه وأمّته ،كما صلّيت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وكما تُحبُّ ، وترْضَى عَدَدَ خَلْقك ، وَرِضَاءَ نَفْسِكَ ،وزِنَةَ عَرْشكَ ،وَمِدَادَ كَلِمَاتِكَ إنّك حَميدٌ مَجيدٌ صلاة تزيدنا قربًا إليك ومحبة لأهلِ طاعتك ،وتجمعُنا بها مع رسولِك – صلّى الله عليْه وعلَى آلِهِ وَصَحْبِه وسلَّم –في الفِردوسِ الأعلَى إنّك حميدٌ مجيدٌ .

◆◆◆

كان أول أمرٍ نزل به جبريل – عَلَيْهِ السّلامُ – من ربِّ السموات والأرض وما بينهما إلى هذه الأمّة المحمّدية ممثّلة في نبيّها ورسُولها الأعظم سيدِنا محمّدٍ– صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ – : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)(العلق:١) فكان في هذا براعة استهلال بأنّ من مفاتِح شخصية هذه الأمّةِ المُحمّدية القراءة باسم ربّها – عَزّوَجلّ – .

وممّا هو من بابِ القراءة المأمورِ بها المتعبّدِ بإتقانها قراءةُ إرثِنَا الفِكريّ في مجالات المعرفة المتنوعة ،فتلك فريضة لازبة تصاحبُ أو تسبقُ النّظر في واقعنا الفكري ،كيما تؤسّس حركتُنا الفكريّةُ المعاصرةُ تأسيسًا يتجاوب مع أصولِنا العربيّةِ المسلمةِ قلبًا ولسانًا

وهمًا ، ويتآخى في الوقت نفسِه مع التّحول الفكريّ لحركة الحياة وتغيُّرها بتغيُّر الأعصار والأمصار ، فيتّقى منهج التّفكير عندنا مغبّة الانفصامِ بين ما هو أصلٌ في منهاج تفكيرنا القائمِ على أنّ لسانَنا عربيٌّ مبِينٌ ،وأنّ قلبَنا وهمَّنا مسلمٌ قَوِيمٌ،لا نتخلى عن أيٍّ من ذلك أبدًا ما بقيت الحياةُ على الأرضِ . وقد هدانا القرآنُ الكريمُ إلى أنّ دُعامتَيْ التفكيرِ عندنا مسلمين هما: بيان الوحي،والبيانُ العربيّ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ◆ الرَّحْمَنُ ◆ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ◆ خَلَقَ الإِنْسَانَ◆ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) (الرحمن :١-٤)

فأقام البيانَ عن خلق الإنسان نعمةً رَحْمَانِيّةً بين البيان عن نعمتين جليلتين :

- تعليمِ القرآن مصدرَ ومنهاجَ تفكير
- وتعليمِ البيان أداة تبيين وتصوير.

ومن ثَمّ فإنّ النُّزولَ على مقتضيات حركةِ التّحوُّل في الحياة في كلّ عصرٍ تقتضي أن يُؤسسَ العِرفانُ بواقعِ العصرِ على العِرفان بالأصولِ الكليّة لمنهاج التفكير في المجالات المتعددة المتنوعة .

ومن تلك المجالات مجالُ فقه الشعر وتلقيه وتذوقه، وهو في ثقافتنا العربية المسلمة ذو أهمية تتجاوزأهميته في المناخات الثقافية غير العربية على اختلاف الأمصار والأعْصَار،فهنالك وثاقةٌ بالغة بين حسنِ فقه الشعر وتلقيه وتذوقه وحسنِ الفَهم عن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ما جاء في بيان الوحي كتابا وسنة ،وهذا لا تجدُهُ في أمّةٍ من الأممِ كمثل ما تجدُه في الأمّةِ المسلمَةِ :

ارتباطُ فقه كتابها المقدّس الموحَى إلى نبيها - صلّى الله عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلّم - هدًى ورحمة بفقه لسانها الذي به خطابها في أعلى صوره الإبداعية ..

وأنت لا تجدُ فقيهًا في بيان الوحْيِ غيرَ مؤسِّسٍ منهاجَ فقهِه على إتقانِ فقهِ الكلمةِ الشّاعرة في لسانِ العربية المُبين، وعلى مِقدارِ فقهه ذلك اللسان يكون فقهه عن الله - عزّ وَجلّ - بيانه الكريم، وفقهه عن رسول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ - تَبْيينَهُ ذلك البيانَ الحكيمَ.

ومن ثَمّ رغبتُ في أنْ أسعى إلى أن تكون لي قراءةٌ عربيّة في واحد من أقدم ما بلغنا من أسفار التفكير النقدي لشعرنا العربي: سفر (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجُمَحِيّ، عسى أن يكونَ من تلك القراءة ما يُعِينُنَا على الوقوف على شيءٍ من أصولِ التّفكير النّقديّ لشعرنا العربي. وغيرُ خفيٍّ أنّ ذلك السِّفرَ قد لقيَ عنايةً بالغة من كثيرٍ من أهل العلم بالشّعر ونقده قديمًا وحديثًا، وهذا يجعل محاولة القراءة فيه عسيرًا عليها أن تُهدِي من يطالعها ما لم يكن له علمٌ به من قبلُ، ولاسيما القارئُ الضّارب في أنحاء الفكر والبيان.

وتلك مخاطرةٌ ليس من الحكمة الإقدام عليها إذا لمْ يكن عند الحاملِ تَبِعَةَ وَلُوجِها ما يحمله على ذلك أو يحمله إليها.

رغبت في أن أقتحمَ ذلك زاعمًا أنّي أثوِّرُ أقوالا في ذلك السفر كنت مفتقرًا إلى أن تُثوّر ليطلعَ عليها بعض شبيبة طلبِ العلم بفقه الشعر وتذوقه، وقد قال ابن عبد البر في تقدمة كتاب (جامع بيان العلم وفضله [1]):

(ولو أغفلَ العلماءُ جمعَ الأخبارِ، وتمييزَ الآثارِ، وتركوا ضمّ كلّ نوعٍ إلى بابِه، وكلّ شكلٍ من العلمِ إلى شكلِه لبَطلت الحكمةُ، وضاعَ العلمُ ودرس، وإن كان لعمري قد درس منه الكثيرُ

(١) ص ٢٥ – تقديم عبد الكريم الخطيب – ط: دار الكتب الإسلامية بالقاهرة و ١٤٠٢

بعدم العناية، وقلة الوعاية، والاشتغال بالدنيا والكَلَبِ عليها، ولكن الله – عز وجل – يبقي لهذا العلم قوماً - وإن قلُّوا - يحفظون على الأمّة أصولَه، ويُمَيِّزون فروعه، فضلاً من الله ونعمة، ولا يزالُ الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم منه الآخِر، فإنّ ذهابَ العلم بذهاب العلماء، كما قال رسول الله – صلَّى الله عليْه وعلَى آلِه وَصَحْبِه وسلَم –" [1]

أمّا من فوق منزل إولئك "الشبيبة" في العلم فليس في حاجة إلى مجرد النظر فيما أثوّرُ إلا حاجة مناقدة وتقويم.

وغير خفي – أيضًا –أنّ دراسة كهذه لا يكون بِمَلْكِها أن تستقصي النصوص التي جاءت على لسان " ابن سلام " إنشاءً من عنده أو روايةً وإخبارًا عن غيره من أهل العلم بالشعر، بل ولا يكون بملكها أن تستقصِي القولَ في دقائق ولطائفِ ما تَعْرِضُ له من تلك النُّصوصِ على قلّتها، فهذا متسع يضيق عنه الجهدُ أولاً والمقامُ آخرا.

واللهُ – عَزّ وَجلّ – أسألُه الهداية إلى الصراط المستقيم هداية إبانة وهداية إعانة، إنّه نعم المولَى ونعم النَّصيرُ.

وصلّى اللهُ وسلّم وبارك على عبده ونبيه ورسوله سيدنا محمّد وعلى آلِه وصحبِه وأمّتِه. والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

مَحْمُود تَوْفِيق مُحَمّد سَعْد

الأستَاذ فِي جامعَة الأزهر الشّريفِ – شبين الكوم

القاهرة : حدائق الزيتون

([1]) ينظر في سنن الدارمي المقدمة باب في ذهاب العلم

بين يدي القراءة ...

... رغبت في أن تكونَ لي من بين يَدَيْ القراءة في كتاب: (طبقات فحول الشعراء) إلمامة عَجلَى بأمرين :

= الأوَّل : التكوين المعرفي لابن سلاّم ، ومجالات عطائه العلميّ ، فإنّ للوقوف على مثل هذا التكوين مايُعين على استبصار حركة التفكير لديه ، ومرامِي تلك الحركة ، وفي استبصار ذلك هديٌ بالغٌ إلى حسن القراءة الناقدة : تفسيرًا وتقويمًا .

وغيرُ قليلٍ ممّا قد نقترفه من مجاوزات تفسيرية أو تقويمية مردُّه إلى التغافلِ عن الوعي بالتكوين المعرفيّ لمن نقرأ نتاجه ، والتغافلِ عن مراميه ومغازيه ، فغاياتُ كلّ سفرٍ ضابطةٌ حركةَ القول فيه

وعَدْلُ القول فيما أُهْدِيَ إلينا أن نضبط حركة قراءة مُؤَلَّفٍ : تفسيرًا وتقويما بما يساق إليه القول .

= والآخر في منزل كتاب "الطبقات" في النتاجِ النَّقْدِيِّ عند بَعْضِ أهْلِ العلم .

واستبصارُ قيمة السِّفْرِ الذي نقرأ عند مَنْ هُمْ أهلٌ لأنْ يقولوا ، فيُصغَى إلى مقالِهم لِمَا هم عليه من العلم بما يقومون له أمرٌ جليلٌ لا في تقليدهم والاحتذاءِ بمقالهم ، بلْ هُوَ أمرٌ جليلٌ في الوقوفِ على الأبعادِ التي ترامَتْ إليها بصائرُ أولئك الأعْلَامِ من ذلك السِّفْرِ ، وهي بلا شكّ أبعادٌ متنوعةٌ

وذلك أعونُ على حسنِ القيام ببعض حَقّ القراءة في هذا السِّفْرِ المؤسِّسِ لِمِنْهاجِ حَرَكَةِ التَّفْكِيرِ النقدِيِّ لشِعْرِنا العَرَبِيِّ .

◆◆◆

. التكوين المعرفي لابن سلام ، ومجالات العطاء . .

في العقد الأول من ميلاد الدولة العباسيّة (١٣٢) كان مقدم ابن سلام إلى الحياة (١٣٩) في خلافة المنصور الذي يُعدّ المؤسّسَ الحقيقيّ للدولة العباسيّة ، والباني بغداد : دار السّلام ، وكان رحيل ابن سلامٍ في عام رحيل الخليفة الواثق (٢٣٢هـ) ، (وقيل : ٢٣١ هـ وهي السنة التي مات فيها أبوتمام الطائيّ) فتوالت عليه إمرةُ المنصور ، والمهدي ، والهادي ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم ، والواثق

أولئك هم أقوى خلفاء الدّولة العبّاسيّة ، وفي ظلالِ سلطانهم عاشت الدَّولة أزْهَى حياتها العِلمية والسّياسيَّة والاقتصاديَّة ، وإن لقِيَ " أهل السنّة " في عصر " المأمون " و " المعتصم " و " الواثق " ما لم يلقَوا من قبلهم ، ومن بعدهم من العَنَتِ والاضطهاد والتنكيل مثلما حلّ في صحبة أولئك الثلاثة الخلفاء ، وكان من شأنهم مناصرة "المعتزلة" المناصرين سلطان العقل أحيانًا على سلطان النقل الصحيح عن بيان الوحي .

وغير خفِيٍّ عنك أنّ " المتوكّل " وإن كان له فضل مناصرة "أهل السنة والجماعة " على " المعتزلة " وإخماد فتنة " القول بخلق القرْآن الكريم التي تولّى " المأمون " و " المعتصم " و " الواثق " أوزارها وتأجيج نيرانها ، فإنّ عهده كان فاتحة ضعف الحكم العباسيّ وعليه يقع وزر فتح باب استهانة البطانة بوليّ الأمر على نحوٍ كان مِعول تقويض سلطان الدولة ، وهو باب قد فتح ، فهل يغلق يوماً ؟ .

وكلّ أمةٍ هان سلطانها على بطانته كانت المتردية في مزلة الضعف والهوان وإن تكدست الأموال في خزائنها ، وتصاعد العمران في سمائها ، وجرت المياه في أنهارها .

في هذه الحقبة من حياة الأمة عاش " ابن سلام" وهي حقبة تُعين كلّ ذي عقلٍ وعزمٍ على أن يكون من أهل العلم ، وأن يجد له مكانًا مرموقًا بين أهل العلم وطلابِه مثلما يجد كلُّ مأفونٍ في عقلِه وخورٍ في عزمه ما يلقِي به في ردَغَةِ الفتنةِ والخبالِ .

في هذا العصر كان فحولُ العلماء والشعراء الذين يضيقُ المقامُ عن مُجَرّد الإشارة إلى بعضهم في كلّ فَنٍّ من فنون العلم .

في هذا ولد وعاش ومات " ابن سلام" منحدرًا من أسرة ذات ولاء لـ" قدامة بن مظعون الجمحيّ القرشي المضري" ومن نشأ في مثل هذا ، وكان شريف النفس كيف يكون موقفه من ثقافة وعلم وحركة الحياة في أمته ؟!!

عمّر "ابن سلام" أكثر من تسعين عامًا ، فلعلّه ممن طال عمره وحسن عمله ، فأشرق ذكره في خَلَفِه .

وكان من بيت علم ، فأبوه "سلاّم بن عبد الله " كان من أهل العلم ، روى عنه في الطبقات ، وكان أخوه " عبد الرحمن " من المحدّثين الثقاة، فقد أخذ عنه" مسلم" فلقي من علماء عصره جمهرة من الأئمة في كثير من مجالات العلم ، ولا سيّما الحديث واللغة والأدب

وكان ممن لقي وتلقى عنهم "مُحَمّدُ بن سلام: يونسُ بن حبيب ، وأبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنَّى ،وأبانُ بن عثمان البَجَليّ ،وأبو مُحْرِز خلف الأحمر" – وهو يُعلِي من شأن "خلف" في العلم بالشعر رواية ونقدا – وحماد بن سلمة ، والأصْمَعي – وهو لا يزيد على أن يجعله من أهل العلم –وسيبويه ، وعبيد الله بن عَوْنٍ ، والمُفَضَّل الضَبّي ، ومن

يجلس إلى مثل هؤلاء بقلب واع ورغبة صادقة وعزيمة نافذة لا يكون جزاؤه إلا التّسديد والإمداد

ومن ثَمّ كان" ابن سلام" وافرَ العطاء، فألف كثيرًا لم يبلغنا منه إلا " الطبقات"، ومما ألفه : "غريبُ القرآن"و" بيوتاتُ العرب" و" الفاضلُ في ملح الأخبار والأشعار" و" الحِلابُ وإجراء الخيل"(١)

وقد عرف أهلُ العلم منزلَه فيهم، فقد جاء الخطيب البغدادي، وياقوت الحمويوابن الأنباري بخبر عن" الحسين بن فهم"(صاحب الواقدي)(ت: ٣٨٩) أن "ابن سلام" قدم عليهم بغداد سنة اثنتين وعشرين ومئتين (٢٢٢هـ) وقد جاوز الثمانين ، فمرض مرضًا شديدًا، فما تخلّف عنه أحدٌ، وأهدَى إليه الأجلاءُ أطباءَهم، وكان ممن أهْدِيَ إليه " ابنَ ماسويه "الطبيب:(طبيب المعتصم: ٢٤٣هـ) فلمّا جسَّ "ابنَ سلام" ونظر إليه قال له :" لا أرى بك من العِلّةِ ما أرى بك من الجَزَعِ "!!فقال " ابنُ سلام":" والله ما ذاك على الدنيا مع اثنتين وثمانين، ولكنّ الإنسان في غفلةٍ حتّى يوقظ بعلّة، ولو وقفت بعرفات وقفةً، وزرتُ قبلاً رسول الله َ- صلَّى اللهُ علَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ -زورةً، وقضيت أشياء في نفسي لرأيتَ ما اشتدّ عليّ من هذا قد سهل"!!

فقال" ابن ماسويه" :" فلا تجزع ، فقد رأيتُ في عِرقك من الحرارة الغريزية وقوتها ما إن سلّمك الله َ- عزّوَجلّ - من العوارض بلغك عشر سنين ومات (ابن سلام)سنة اثنتين وثلاثين ومئتين"

(١) راجع : ابن سلام وطبقات الشعراء للدكتور: منير سلطان ، ص:١١٨، وتقديم طبقات فحول الشعراء لمحمود شاكر : ج١ص٣٨

قال " ابن فَهْم ": " فوافق كلامه قَدَرًا ، وعاش " محمد بن سلاّمٍ " بعد ذلك عشر سنين "(١)

هذا الخبر دالّك على عظيم منزل "ابن سلام" عند أهل العلم والفضل ، فأنْ يُرْسَلَ إليه طبيبُ المعتصم لا يكون إلا من عظيم الرغبة في سلامته للأمّة .

وهذا الخبرُ دالّك – أيضًا – على أنّ " ابن سلام " قد أهمّته أمورٌ منها الحجُ والزيارةُ ،وأمورٌ يستعين على تحقيقها بدعاء في حجه وزيارته ؛ لما لها عنده من جليل القدر،ولولا أنّه يراها مُدّخرًا له يوم اللقاء الأعظم لما أهمّه مثلُ ذلك في سنّه هذا ، ويحدس " أبو فهر" أنّ ذلك الذي أهمّه ورغب في تحقيقه هو تأليفُ كتبٍ .

يقول : " ... وأكبرُ ظنّي أنّ هذه الأشياءَ التي كان يتمنى قضاءها هي تأليف كتب جامعة كان يحبُ أن يتعجل كتابتها بعد أن قضى اثنتين وثمانين سنة لم يؤلف كتابًا ،ولا يبقى من علمه عند الناس إلا الشيء من الأحاديث التي أُثرت عنه ،والأخبار سماعًا ورواية ، والكتابة قيد العلم ووعاؤه ،فلمّا أبلّ من علته قليلاً أجمع رأيه على أن يعدّ منهجه لكتبه التي يحبُ أنْ يؤلفها ،بعد دهر طويل جدًا من انتياب خواطر تُلِمُ ساعات ثُمّ تذهبُ غير محقّقة ولا مثبتة في كتاب .

ففي المدة التي قضاها بين سنة ٢٢٢هـ وسنة ٢٣١هـ بدأ كتابه في الشعر، وهو كتاب " الطبقات " ثُمّ كتاب " شعراء الفرسان " ، ثُمّ كتاب " سادات العرب وأشرافها ، وما قالوا في الشعر " ، ثُمّ كتاب " أيام العرب " ، وغير ذلك مما وصل إلينا خبرٌ عنه أو لم يصل ، ثُمّ اخْتَرَمَتْهُ المَنِيّةُ هو وأخوه المحدّثُ المشهور " عبد الرحمن بن سلام الجُمحي "

(١) ابن الأنباري : نزهة الألباء في طبقات الأدباء : ص ٢١٧ – ط:١٢٩٤

سنة ٢٣١هـ وبقي كلّ ما كتبه من كتبٍ عند أهلِه ببغداد،حتّى رحلوا إلى "البصرة" عائدين، أو حتّى حملوها إلى ابن أخته" أبي خليفة" قاضي" البصرة" فآلت إليه،وصارت في حوزته،فيما أرجح بعد توليه قضاء"البصرة"في سنة(٢٩٣)والله أعلم أيّ ذلك كان ؟ وعرفها الناس من يومئذ"[١]

حدسٌ حدسه " أبو فهر" يستظهر منه أن كتاب " الطبقات " ألف بآخرة من عمر " ابن سلام" وأنه قضى ثنتين وثمانين سنة من عمره لم يؤلف شيئًا

القول بأنّ ما كان يقوم في صدر " ابن سلام " من الهمّ ، وهو معتلّ في " بغداد " وقد مضى من عمره ثنتان وتسعون سنة إنما هو تأليف كتب " الطبقات " لا يرقى إلى أن يستوثق به كمثل ما يستوثق بالظنّ المقارب فضلا عن اليقين الراسخ ، فإنّ من يهمه ذلك مثل الذي نزل به لا يبقى تسعة أعشار عمره لا يكتب شيئًا،لعلّ أمورًا أخرَى مع هذه أو دون هذه هي التي أقامت الهمّ في صدره يومئذٍ .

المهمُّ أنّ كتاب" الطبقات" هو الذي بقي لنا منه ، وهوما أسعَى إلى النظر فيه ولا سيما في مقدمته ومنهاجه .



---

(١) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام : محمود شاكر ص :٤٨-٤٩ – ط: المدني ١٤١٨هـ

.. منزل كتاب الطبقات في النتاج النقديّ ..

قد لقي هذا السفر عناية بالغة من علماء النقد في عصرنا هذا، فلا تكاد تجد مؤرخًا لحركة التفكير النقدي لشعرنا العربيّ إلا كان ناظرًا فيه مبرزًا شيئًا من قيمته العلمية في بابه ، ولعلّ مردّ هذا إلى انّه من أقدم ما جاءنا من كتب الأدب ونقده ، وقِدَمُه وتقدُّمُه مُغْرٍ بالوقوفِ على ما كان من الأسلاف في الإحساس بالكلمةِ الشّاعِرَة وتذوقها لما لهذه الكلمة من أهمية بالغة وأثر نافذٍ في تكوين وتشكيل الشخصية الثقافية والعلمية لكلّ طُلابِ العلمِ وأهلِه .

ومن البيّن أنّ مما يُعينُ على الوقوف على شخصية أيّ أمّة بما فيها من محاسن ومطاعن حسنَ البصر بالمكونات النفسية والعقلية لهذه الأمّة ،والاجتهادُ بل الجهادُ في مثل هذا مقدمةٌ لحسن أيّ جهادٍ آخرَ، فلا معنى لأنْ تتخذ موقفًا ما من أمّة ،وأنت لا تَسْبِرُ أغوارَ شخصيتها ومكونات تلك الشخصية ومراميها،وهذا ما فطن له أعداء أمة الإسلام،ولا سيّما في عصرنا هذا،فبالغوا في دراسة هذه الأمة الإسلام أكثر من دراستنا نحن لهم بل لأنفسنا- أيْضًا - فلا يضنون بمال أو جهد في سبيل الوقوف على أي شيءٍ ،وإن كان دقيقًا أو لطيفًا يكشف لهم مُنْعَطَفًا في تكوين شخصية الأمة المحمدية المسلمة ، ولهذا كانت كتائب المستشرقين،وكان الإغراء باستقبال البعثات الوافدة من الديار المسلمة إلى ديارهم ، فاتخذوا من بعض أبناء تلك البعثات أولياءَ لهم وحَفَدَةً يَدِينُون بفضلهم ،ويُحققون لهم مآربهم الخَبِيئة الخبِيثة ، فكانوا أكثر هيمنة على مجالات التثقيف والإعلام في ديارنا ، فبات كثيرٌ من شباب هذه الأمة ساقطًا في(مستنقع)الإنبهار والدّهَش بما قام في الغرب

من حركة ثقافية في أبعادها المتنوعة المتعدِّدة على الرغم من أنْ ثقافة كلّ أمّة من ترابها وهوائها ومائها، لا يصلح فيها كلّ ما يصلح في غيرها، وقد نعق ناعق من حفدتهم يومًا بأنّ علينا نحن أبناءَ مِصرَ خاصّة أن نُولّي وجهنا شطرَ الشاطئ الغربيّ نَعُبُّ مما فيه إنْ خيرًا وإنْ شرًا وأنْ نَحْيَي حياتهم، فهم أقربُ إلينا من غيرهم من أبناء الشرق المسلم.. وقد فعل هو حين تبعهم في إعلانِه فَقْدَهُ الثِّقةَ فيما يخبر القرآن الكريم عنه، فكاد يخرج من ملّته لولا رجعته.

الأهمُ أن من سعى إلى تأريخ الحركة النقدية لأسلافنا عُني بالنظر في كتابِ " ابن سلاّمٍ " ، وهم من الكثرة مما يجعلنا في عجز عن الوفاء بحقّ كلٍّ، فكان ضرورة الاستغناء ببعضهم عن بعض.

يقول: " طه أحمد إبراهيم " :

« ونحن نفرد بحثًا خاصًا لابن سلاّم ، لا لأنّه أتَى بجديدٍ غير ما أتَى به سابقُوه ومعاصِروهُ، ونخصُّه بالقولِ لا لأنّه خاضَ في الأفكار التي خاضَ فيها غيرُه من اللغويّين والرّواة، بل لأنّه أوّلُ مَن نظّمَ البحثَ في هذه الأفكار، وعرف كيف يعرضها، ويبرهن عليها، ويستنبط منها حقائق أدبية في كتابه (طبقات الشعراء).

شارك " ابن سلاّم " معاصريه في كثير من الأفكار، ولكنه محّصها وحققها، وأضافَ إليها، وصبغها بصبْغة البحث العلميّ ، وسلكها في كتاب خاصّ هو خلاصة ما قيلَ إلى عهدِهِ في أشعارِ الجاهليّةِ والإسلامِ ، فالفرقُ بينه وبينَ من عاصره كثير.

كثيرٌ لأنّه زاد على ما قالوا في النقد الفنيّ ، وفي النظرات في الأدب ، وكثير على الأخصّ؛ لأنّه أودعَ كلّ المعارفِ في النّقد كتابًا لعلّه أسبق كتابٍ في ذلك، أودعها على طريقة العلماء وفي عرف منطقيّ

قويم ،فهو بذلك من الذين أفسحوا ميادين النقد، وهو بذلك أول المؤلفين فيه) (1)

فمنزلته قائمة في جهده العلمي الذي أحال المعرفة النقدية لدى سابقيه ومعاصريه إلى علم ذي منهج ، وإن لم يكن قد أضاف – عند طه أحمد إبراهيم – إلى قضايا النقد قضية أو أقام أصلاً نقديًا لم يسبق إليه،وإحالة المعرفة إلى علم أمرٌ ليس بالقليل خطرُه والنازلِ منزلَه .

◆◆◆

ويذهب " أحمد أمين" إلى أن "ابن سلاّم" " كانت له معارف واسعة في اللغة والأدب والنحو والأخبار حصلّها من علماء عصره (...) وأخذ أفكارهم وآراءهم المبعثرة ، ونظمها تنظيمًا علميًا ، ونقل النقد خطوة جديدة كالخطوة التي خطتها اللغة من كلمات مبعثرة إلى معجم منظم ، أو كنقل الإبحاث النحوية المفرقة إلى كتاب ككتاب " سيبويه" ونحو ذلك "

"ولكن كتابه على فضله ككل كتابٍ يعدّ طليعة في فنّ ينقصه الترتيب المحكم ، والنظام الدقيق ، فيأتي من بعده من يكملون نقصه ويحكمون نظامه ،وكذلك كان ..."(2)

ويذهب" سيد قطب" إلى أنّ النقد العربي في مبدأ عصر التدوين حاول أن يتجاوز المرحلة التأثيرية إلى المرحلة التحليلية " وحاول أن يضع قواعد وأصولاً لم تخرج في الغالب عن حدود المنهج الفني . وضع "

---

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري : طه أحمد إبراهيم : ص ٧٤ – بيروت

(2) النقد الأدبي : أحمد أمين ٤٣٨، ٤٤٠ – ط: الرابعة:١٩٧٢ - مكتبة النهضة المصرية .

ابن سلاّمٍ الجُمَحِيّ" المتوفّى في أول القرن الثالث كتابه " طبقات الشعراء" (...) ومع أنّ" ابن سلاّمٍ " قد تطرق إلى شيءٍ من المنهج التاريخي إلاّ أنَ عمله في الصميم لا يبعد كثيرًا عن حدود المنهج الفني في أبسط صوره(...) وعلى العموم لم يكن يتجاوز المواضع المفردة إلى الحكم العام الشامل على القصيدة ، ولم يتعرض خاصة للقيم الشعورية فيها"([1])

وتلك مقالة لا تكشف عن واقع كتاب الطبقات وصنيعة صاحبه فيه ، وتلك مناقدة يتداول مثلها المحدثون في مناقدتهم نتاج الأسلاف : جزئية النقد ، غياب النظرية ، الغفلة عن وحدة النصّ...

فهل يرضى النقاد المحدثون أن يطالبهم أحفادهم بما سوف يشيع القول به بعد نصف قرن بل بعد عشرة أعوام ؟

أولى بهم أن يحرروا حركة النقد ومراميه ومغازيه ، وحاجة أمّتهم يومئذ ، وتُقوّم حركة الأسلاف النقدية في ضوء حاجة عصرهم ، ومعطيات ذلك العصر.

وهذا الذي قاله سيد قطب قد ذكره " الدكتور عبد العزيز عتيق" فأودعه بحروفه في كتابه "في النقد الأدبي"([2])

وهو فاعل ذلك في كثير من مواضع كتابه دون أدنى إشارة منه إلى من اقتبس منه ذلك ، وليس الظنّ به أنّه المستلب، بل الظنّ به التّخوّف من ذكر" سيد قطب " في كتابه في عصرٍ كان ذكره جريرة

([1]) النقد الأدبي : أصوله ومناهجه – سيد قطب – ص:١٢٣ – دار الفكر العربي – القاهرة – (د.ت)

([2]) في النقد الأدبي : عبد العزيز عتيق ص ٢٨٠ – دار النهضة العربية بيروت – ط:(٢) سنة ١٩٧٢

عظيمة ، فأراد أن يُبَلِّغ "العتيق" طلابَ العلم مقالة سيد قطب دونما أن يلحقه ضررٌ.
ذلك ما نظنّ أنّه الباعثُ لـ "العتيق" على ذلك الصنيع .
وإذا ما كان "سيد قطب" يرى أن "" ابن سلاّمٍ" قد حام حول حدود المنهج الفني في نقد الشعر وقاربه أو قارفه ، فإنّ الدكتور" محمد مندور" يرى أنّ" ابن سلاّمٍ" قد فطن إلى أمور مهمة : فطن إلى كثير من الشروط التي يجب أن تتوافر في الناقد ، وفي النقد (...) فطن إلى أنّه لكي يصحّ النقد الذوقيّ لابدّ له من دربة (...) وفطن إلى ضرورة الدربة والممارسة عند الناقد فطن – أيضًا – إلى أهمية تحقيق صحة النصوصِ ، وصحّةِ نسبتها ، وهذهِ أولى عمليات النقد وأساسه المتين ...
وبرغم من ذلك يقول مندور :" والواقع أنّه إذا كان" ابن سلاّمٍ" مصيبًا في نظرته إلى إنتاح الشعر ، فإنّه أقلُّ إصابة فيما عدا ذلك (...) فـ" ابن سلاّمٍ" لم يتقدم بالنقد الفنيّ إلى الأمام شيئًا كثيرًا ، وإن كان قد صدر في تحقيقه للنصوص عن مذهبٍ صحيحٍ ، وحاول أن يدخل في تاريخ الأدب اتجاهًا نحو التفسير ومحاولة للتبويب تقوم على أحكام فنية ..." [1]
وهذا أيضًا مطالبة لابن سلاّم بما لم تتوفر معطياته بين يديه أو لم يكن من حاجات عصره ، فإنّ غير قليل من أهل العلم بالشعر وطلابه لم يكونوا بالمفتقرين إلى بسطة القول تحليلاً وتعليلا ،ولا إلى التصريح بالقول النظري في المنهج النقدي وأصوله وضوابطه على نحو ما نحن مفتقرون إليه .

([1]) النقد المنهجي عند العرب – محمد مندور – ص ١٨ –٢٢ – دار نهضة مصر بالفجالة .

فالحاجة ترسُم حركة العطاء ونوعه .

ويذهب الدكتور "بدوي طبانه" إلى أنّا بكتاب "ابن سلاّمٍ" "لأوّل مرة نجد كتابًا وافيًا في الشعر العربي يسلك صاحبه في تأليفه منهجًا علميًا ، ولا شكّ أنّ محاولة تقسيم الأدباء والشعراء إلى مجموعات وطوائف بحسب تفاوتهم في كثرة النتاجِ ،أو في جودته ، أو في قدرتهم على التصرّف في فنون الشعر ، تعدّ من فنون الدراسات النقدية ، ومن أهمّ الأغراضِ التي يطلب إلى النقّاد أن يقدموا آراءهم فيها إلى جمهور المشتغلين بالمسائل الأدبية .."[1]

ويقول "الطاهر مكي" : "قصارى القول أنّ "ابن سلام" هذّب النقد الساذج من موروث الجاهليةِ ، وإن لم يضف إليه كثيرًا ، وحاول أن يدخل في تاريخ الأدب اتجاهًا نحو التفسير والتعليل ، ومحاولة للتبويب والتنظيم ، تخضع لأسس ، وتنهض على قواعد واهتماما بسير الشعراء وحياتهم : ليفسّر في ضوئها إنتاجهم ، وإن لم يكنْ قد بلغ الغاية في كتابه ، فحسبه أن وضع اللبنة الأولى"[2]

ويقول "الطاهر درويش" :

"أفاد "ابن سلاّم" من جهود معاصريه وآرائهم التي تداولوها بينهم في نقد الشعر ودراسته ، وكان يمحّص تلك الآراء ، ويهذّب منها ، ويضيف إليها ، ويتناول ما قيل في ذلك جاهلية وإسلامًا ، وتتضح الروح العلمية بكتابه "طبقات الشعراء" في جملة من المسائل

---

(1) دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث – بدوي طبانة- ص : ٢٤٦ –ط: ١٩٦٥ مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .

(2) دراسة في مصادر الأدب : للطاهر أحمد مكي ص١٦٩ – ط: دار المعارف -١٩٩٣ - مصر

والقضايا أثارها في يقظةٍ وإحاطةٍ ، وعالجها في بصرٍ وعنايةٍ معالجةً علمية تعتمد على العقل والمنطق والبرهان "(١)

" لاشكّ في أنّ كتاب " طبقات الشعراء" من أهمّ وأوّل كتب النقد الأدبيّ عند العرب ، جمع صاحبه الأفكار واللمحات النقدية التي سبق إليها ، وفحصها ورتبها ، وأصلها ، وأضفى عليها الروح العلمية ، وأضاف إليها ، ونماها ، وأعطاها من فكره وعلمه وخبرته حتّى أصبح كتابه مرجعًا لكلّ ناقدٍ عربيّ وكلّ باحثٍ وكلّ أديبٍ "(٢)

ومن بعد أن يورد ما وُجّه إلى "ابن سلام" من ملحوظات ونقود يقول : " ومهما يكن من أمرٍ فإنّ "ابن سلاّم" كان يعدّ نقطة انطلاقٍ إلى نوع من التصور الناضج لقضايا النقد ومسائله ، وكتابه هذا يعدُّ أوّل معْلم من معالم الطريق الطويل الذي امتد عبر الأزمان والقرون ، ووضحت في جوانبه المختلفة ألوان الدراسات والأبحاث الخصبة في هذا المجال ، توحِي كلُّها باطراد نمو الأدب والوعي الأدبيّ والنظر النقديّ في دائرة هذه الدراسات النقدية الجمالية في اللغة العربية "(٣)

لم يحرم " الطاهر درويش" "ابن سلام " من فضل إضافةٍ جديدٍ بجانب ما امتاز به عمله من إحالة المعرفة النقدية إلى درس علمي ذي منهج وأصول يقوم عليها .

ويعمد الدكتور "محمد العزب " إلى بسطة من القول في كتاب الطبقات " بحسه الشاعروعلمه الواعي النافذ فهومن الشعراء النقاد الذين لم

---

(١) النقد الأدبي عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري : محمد طاهر درويش ص١٤٣ – ط:دار المعارف - مصر

(٢) السابق : ١٤٩

(٣) السابق : ١٥١

يختل توازن الإبداعين عندهم : الإبداع الشعري والإبدع النقدي مما يجعله في منزل جدير بأن يرتحل إليه طلاب الشعر ونقده وأن يقال فيه ما قاله " ابن سلام في " خلاد الباهلي " : " كان خلاّد حسنَ العلم بالشعر: يرويه ويقوله "(1).

يقول عن " طبقات ابن سلام " :

" ... هو أول كتاب نقديٍّ في التراث العربيِّ يسير فيه مؤلفه على منهجٍ علميٍّ في تصنيف الطبقات ... "

" ابن سلام حين قسّم هؤلاء الشعراء إلى طبقات كان ينزع في ذلك عن اتجاه نقدي فنّي...وهو الاتجاه الصوابيّ في تنصنيف الشعراء والمبدعين بعامة فيما نعتقد؛ لأنّ الذين يصنفون على أساس زمانيّ أو مكانيّ أو عقدي فحسب يهدرون بهذا النظر قيمة الفذاذة الذاتية أي قيمة أن تكون هناك عبقريات نابغة تتخطى حدود الزمان والمكان والحسّ العقديّ لِتُغنّي لكلّ الحياة ولكلّ النّاس... "

ويقول في قضية انتحال الشعر : " وإذا كان ابن سلاّمٍ على وجه التحقيق ليس أوّل خائضٍ في هذه المقولة الجهيرة ، فإنّه – على وجه التحقيق كذلك – كان أوّل ناقدٍ منهجيٍّ درسَ هذه الظاهرة على ضوء منهج متكامل يضع الحقائق أمامه ، ويناقشها مناقشة تاريخية وفنية هادئة ، ويصدر حكمه فيها على ضوء هذا الشمول المستقصي ، وهذه الحقائق الفنية والتاريخية الدامغة "

" ومهما يكن من شيءٍ ، فإنّ ابن سلاّمٍ وضع قضية الانتحال في كتابه تحت ضوء منهجيٍّ مفارق لكتابات من كتبوا في هذا المجال

---

(1) طبقات فحول الشعراء ج 1 ص 7

مما يؤكد أنّه كان ينزع عن فكرٍ نقديّ عميقٍ ، ألمّ بشتات القضية إلمامًا شاملاً وصنّفها تصنيفًا علميًا دقيقاً،وأعمل عقله المليءَ بثقافات عصره وما سبقه من عصورٍ في قضية تقويم الظاهرة ، والحكم لها أو عليها .

وهذا يدلُّ دَلالة أكيدة على أنّه كان يَعِي تراثه الشعريّ والنقديّ ،وأنّه كان يمتلك عقلاً علميًا قادرًا على البحث والمقارنة والاستقصاء"

وفي شأن " الموازنة بين الشعراء " يذهب الدكتور " العزب " إلى أنّ " ابن سلاّمٍ " في كتابه : " طبقات فحول الشعراء " قد أعطى في هذا الصدد عطاءً رائعًا بكلّ المقاييس ؛ لأنّه وازن بين عديد من الشعراء ، وعديد من الاتجاهات على أسسٍ متنوعةٍ تتردّد بين النظر الفنّي المحايد،ورعاية قيمٍ خارجيةٍ كالبيئات والأعراق وبين الإطلاق العاطفيّ غير المبرر، والتعليل النقدي الناهض على منطقٍ فنّيٍّ وبين الاتكاء على الاجتهاد الذاتيّ في تحديد هذه القيمة جميعًا مما يجعل لهذا الجانب من جوانب نقد " ابن سلامٍ" قيمة خاصّة تضعه في طليعة النقاد الذين توجه همهم النقديّ إلى رصد الاتجاهات الفنية من خلال استقراء الظاهرة الفنية ذاتها ، وليس من خلال السقوط عليها بأحكام شمولية تتسم في عمومها بالتجريد والمثالية والتنظير التابع من تأمل فكريّ بعيد عن جدل الواقع الإبداعيّ المثير"

" ونعتقد أن عملا هذا حجمه يمكن أن يكون رائعًا بكلّ المقاييس ، فقط ينبغي أن نعاني نحن في تصنيفه وتضويءِ المسافات الواصلة بين النظير والنظير ، ولمح الخصائص العامة التي تتحرك في إطارها كلّ هذه المقولات المتناظرة حتّى نظفر في النهاية برؤية كليّةٍ – من خلال هذا التراكم – نستطيع أن نجهر بأنها تنتمي إلى العقل

العربي الناقد ، في قديمنا الذي ينحني على قيم عظيمة ما تزال مطمورة في فوضى ما تعرَّضَ له هذا القديمُ من منحى تأليفيٍّ تراكميّ يعنَى أولاً وأخيرًا بالتكديس لا بالتصنيف "(1)

بسطت لك النقل هنا ؛ من أنه قول شاعر ناقد ذو طبع وذكاء ورواية ودربة ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ، ولا الصبابة إلا ما يعانيها .

وقد كان نظره أوسع وأنفذ وبيانه أبسط وأسبط .

◆◆◆

وليس يخفى أن الذين ذكرت لك مقالتهم لم يكن أحد منهم بالمستفرغ جهده لدرس كتاب " الطبقات" ، فلا يكون الصادر عنهم وليد مناقدة نافذة مستوعبة ، ولكنَّك إذا ما عمدت إلى من اقتطع جزءًا من عمره فأهداه إلى كتاب " الطبقات" تحقيقًا وتفسيرًا وتأويلا وتعليلا وتقويمًا ، فإنَّ القولَ حينئذٍ جديرٌ بأنْ يُصغَى إليه .

يقول " أبو فهر" عن تقسيم " ابن سلاَّمٍ " الشّعراء طبقات :

" الذي فعله " ابن سلاَّمٍ " أجودُ في تاريخ الشعر ، وتاريخ نقده ، من تقسيم المحدثين للشعراء وفق الزّمن ،وتاريخ المولد والوفاة، وإلغاؤه" طبقة المخضرمين" وإدماجها في طبقة الشعر نفسه(!!) دليل على حسن بصر" ابن سلاَّمٍ " بالنقد، وجودة معرفته بالشعر ، ودليل على أنه نهج لكتابه نهجًا يحتاج إلى دراسة دقيقة متقنة ، يُرجعُ فيها إلى طريقته التي سلكها في وضع كلّ أربعة في طبقة ،

---

(1) قضايا نقد الشعر في التراث العربي للدكتور محمد أحمد العزب ج١ ص ١٠٤، ١٠٧ ، ١٢٧، ١١١، ١٣٣ – ط: ١٤٠٤

وزعمه أنهم "متكافئون معتدلون" ، وهذا أمر يتطلب إفاضة ليس هذا مكانها"([1])

هذا فيما يتعلق بالمنهج في تقسيم الشعراء طبقات، وهو تقسيم من صميم النقد الأدبي لأنّه تقسيم مؤسس على نظر فيما أنتج الشعراء ، لا فيما هو خارج عن أفعالهم ، وكلّ ما يصدر من النظر فيما قال الشعراء هو من قبيل قراءة النّص ، وهذا من عمل الناقد .

ويقرر "شاكر" أنه "سيبقى أمر" كتاب طبقات فحول الشعراء" بعد ذلك محتاجًا إلى دراسةٍ وتفصيلٍ وتتبعٍ ، وتفلية وفقه لأصول "ابن سلاّمٍ" في النظر، ولأسسه التي بني عليها نقده في الشعر ، وهو خليق بأن تبذل في دراسته الأعوام ،لأنّه أقدم كتاب وصل إلينا من كتب قدماء نقاد الأدب والشعر ، بل لعلّه طليعة كتب النقد في الأدب العربي ، وهو خليق بهذه المنزلة من التقديم والجلال"([2])

◆◆◆

وممن أفرغ جزءًا من عمره وجهده لطبقات ابن سلام ، وكان جديرًا بأن نصغي إليه الدكتور "منير سلطان" فقد قدّم لنا كتابه الماجد: "ابن سلاّم وطبقات الشعراء" وكان مما قاله فيه كثير ليس بملكي أن أستجمعه هنا ، ولكنّي أذكر منه قوله :

"...استطاع "ابن سلاّمٍ" أن يثبت أنّ كتابه هذا سِجلٌ لكلّ المقدماتِ النقدية التي عاشَ عليها النقد بعد ذلك ، وانّه في حدّ ذاته كنزٌ ضَخْمٌ نفخر به ،وتراثٌ نقديٌ نعتزُّ به .

([1]) مقدمة تحقيق الطبقات لشاكر ج١ ص٦٥

([2]) مقدمة تحقيق الطبقات لشاكر ج١ ص٦٩ ، قضية الشعر الجاهلي في كتاب "ابن سلاّم" :٢٣- ٢٤

ولقد تكاتف الكاتبُ: ثقافته، والهيكل الذي اختاره ،و طريقته في الإقناع في توضيح مختلف جنبات النقد ،وراحت إمكانياته هذه- كلٌّ منها بما استطاعت – تبيّن لنا ملامح نقدنا العربيّ منذ أن نشأ على يدِ الجمهور إلى أن أصبح شيئًا ذا قيمة في يد العلماء." (١)

ويقول " ... قد راينا "ابن سلام" يوازنُ بين شاعر وشاعر، ويفضلُ أحدهما على الآخر، ورأيناه يوازن بين الأبيات المفردة والقصائد المطولة، ويلاحظ الفروق الدقيقة بين النسيب والتغزل، ويفرق بين جميل وكثير...

ونحن لا نطلب من " ابن سلام" أن يتقدم بالنقد خطوات شاسعةً فكفاه أنّه جمع ما كان يقال في النقد وزاده لمحاتٍ دقيقةٍ، وملاحظاتٍ لها قيمتها، ولو لم يظهر كتابه لاعتمدنا على كتاب "الشعر والشعراء" أو كتاب كالعمدة لابن رشيق، ولضاع طورٌ هامٌّ من أطوارِ حياة نقدنا العربيّ.

وليس على من يمهد الطريق من إلزامٍ سوى انّه مهّد الطريقَ، وفتحَ مجال الإضافةِ والابتكارِ، وابن سلامٍ مهد ونظم وعرض عرضًا شيقًا بجانب اضافاته النقدية القيمة، ويكفيه هذا من جهدٍ" (٢)

◆◆◆

تلك شذرات من مقالات أهل العلم في منزل كتاب الطبقات.

وأمُّ القول عندي أن كتاب "الطبقات" "ابن سلاّمٍ" هو في النقد الأدبي وتاريخ الأدب كمثل كتاب "سيبويه" وكتاب "العين" للخليل سبقا وريادة، وغير خفي عنك أن هذه الثلاثة : العين والكتاب

(١) ابن سلام وطبقات الشعراء : الدكتور منير سلطان - ص٢٦٤-٢٦٥- ط: منشاة المعرف – الاسكندرية سنة١٩٧٧م

(٢) ابن سلام وطبقات الشعراء : لمنير سلطان ص ٢٩١

والطبقات، وإن كانت طلائع في أبواب معارفها فإنها لتفاوت منازلها: ليست منزلة طبقات "ابن سلام" في النقد الأدبي كمثل منزلة "العين" في المعاجم ومنزلة "الكتاب" في النحو، لا شك في هذا : "العين" ، و"الكتاب" قد كملا في بابهما، وكلّ ما جاء من بعدهما في بابهما عالةٌ عليهما ، ولم يضف إلى الأصول ما يذكر له .

و"الطبقات" لم يكن كذلك : فتح أبوابًا ، وخطا خطوات ، ولكنّه لم يكمل المسير، فثمّ أبوابٌ لم يقترب منها فيما وصلنا عنه .

وغير خفي عنك أن "ابن سلام" لم يعمد إلى نشر كتابه في حياته في النأس ، ، فبقي كتاب "الطبقات" في صحبة مؤلفه لا يطلع عليه أحد إلا قليل من نحو ما كان من الريّاشيّ : العباس بن الفرج (ت: ٢٥٧) فقد كان يختلف إلى "ابن سلام" ليستعير منه كتابه في الطبقات ، فكان "ابن أخت ابن سلام" أبو خليفة "يخرج له منه جزءًا جزءًا ، فقيل للرياشيّ في ذلك فقال :" لو عاش – أي ابن سلام – يومين لسمعته منه ".([1])

ثُمّ كان من ابن أخته وتلميذه "أبي خليفة الجمحي" فضل إخراج الكتاب وروايته ونشره من بعد سنين مضت من تأليفه .

وكان "أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦) صاحب كتاب الأغاني ممن أخذه ، فهل لنا أن نظنّ أنّ "ابنَ سلاّمٍ" كان يرى أنّ كتابَه لم يكتمل بعد ، وأنّه لم يُودع فيه ما يريد إيداعه فيه ليكونَ في تمامه وعلى شرف كالذي عليه كتاب "العين" للخليل و"الكتاب" لسيبويه .

هل لنا أن نَظُنّ ؟ .

◆◆◆

([1]) قضية الشعر الجاهلي : شاكر ص ٤٧-٤٨ نقله عن من " مراتب النحويين " لأبي الطيب اللغوي .

.مـجالات النظر في كتاب "الطبقات".

إذا ما كنّا قائمين إلى النظر في كتاب " الطبقات" لنقف على بعضٍ من القضايا النقدية ، ولا سيّما التي ما تزال مناط نظر ومباحثة فإنّ مجالات النظر فيه عديدة ، غير أنّي أرغب في النظر من قَبْل في البناء الهيكلي لكتاب (طبقات فحول الشعراء) كما هو بين أيدينا من تحقيق " محمود شاكر" إذ هي النسخة الأكثر انتشارًا ، وأكثر النسخ قد عُنِي بها محققُها وناشرُها ، وهي التي يتيسر على كثير من أهل العلم اقتناؤها ، على الرغم من أنّ " شاكر" قد أودع نصوصًا نقلها من أسفار أخرى ذاهبًا إلى أنها منقولة من كتاب الطبقات ، وأن النسخة التي كانت حينذاك بين يديه من مخطوط " الطبقات" ليست بالكاملة .

يقول : « كانت عند" أبي الفرج" نسخة من كتبِ" ابن سلاّمٍ" كتبها إليه القاضي " أبو خليفة " وعليها إجازة بروايتها ، ومنها كتاب الطبقات ، ومن هذه النسخة نقل" أبو الفرج" في " الأغاني" ما نقل ، وإذن ، فما جاء من أخبار" ابن سلاّمٍ " في كتاب " الأغاني" عن الشعراء ممن لهم ذكر في كتاب " الطبقات" يوشك أن يكون نسخة ثالثة من هذا الكتاب بلا ريب ...(١)

«... والذي لاشكّ فيه أنّ " أبا الفرجِ" قد نقل نقلاً صحيحًا تامًا في أكثر ما رواه في كتابه " الأغاني" من كتاب" طبقات فحول الشعراء" لابن سلاّمٍ ، وقد تبيّن لي بالمراجعة والفحص أنّ أخباره المسندة إلى" ابن سلاّمٍ" جاءت مطابقةً لما في" المخطوطة" ونسخة المدينة"م"

(١) تقديم " الطبقات" لشاكر ج١ص ٤١

مطابقة تامة في أكثر الأحيان (...) ولمَّا رأيت المطابقة الصحيحة بين ما كان في أصل الطبقات، وما جاء في كتاب "الأغاني" استبحتُ لنفسي في الطبعة الأولى أن أزيد في مواضع الخرم من نسختي المخطوطة أخبارًا نقلتها من "الأغاني" بأحد أسانيده (...) وزدتها أيضًا على نصّ نسخة المدينة التي طبع عنها ما طبع من الطبقات، وأنا على يقين يومئذٍ من أنها مختصرة من كتاب الطبقات، فعاب عليّ ذلك بعض أهل الفضل من العلماء، ولكنْ لمَّا جاءتني مصورة "المخطوطة" كاملة وجدت كلّ ما زدته من الأغاني موجودًا في المخطوطة بل كان بعضها في سياق "ابن سلاَّم"، وفي موضعه من كتابه كما أثبته أنا استظهارًا (...) من أجل ذلك رأيت أنّ الذي فعلته ليس عيبًا قادحًا في عملي ؛ لأنّ ما في "الأغاني" هو بيقين من كتاب: "الطبقات" ووضعي إياه اجتهادًا في موضع من الكتاب ربّما أصاب موضعَه من أصل "ابن سلاَّم"، وربّما أخطأ الموضع الذي وضعه فيه، ولكنّه مع ذلك من أصل "ابن سلاَّم" بلا ريب، ولا عيب في ذلك إن شاء الله ..."[1]

ولو أنّ "أبا فهر" جعل ما أضافه في هوامش تحقيقه، ولم يجعله في المتن لكان أعْوَنَ للقارئ على تذكُّرِ أنّ تلك النصوصَ لم تكن فيما نشر الكتاب عليه من نسخة مخطوطة، وعلى ذلك سار المحققون: ، ونحن نقرأ الآن الكتاب لا نكاد ننتبه في كلّ موطن إلى ما كان من أصل مخطوطة الكتاب في سياقه وما كان من غيرها، فأنزلها شاكر ذلك المنزل من السياق، وإشاراته في هامش الصفحات كثيرًا ما تتجاوزها العين. وتوثيق نسبة النّص إلى صاحبه من أهم

(1) السابق :٤٣-٤٤

القضايا التي شغلت " ابن سلاّمٍ " وشغلنا بها ، فكان حقّه أن نبالغ في تحري نسبة النصوص إليه .

قد يكون الأمر ليس بذي خطر بالغ ، المهمّ إني عرضت له برغم من ذلك تذكيرًا بصنيع " أبي فهر " فهو ممن يؤخذ عنه ، فحقه أن يذكر صنيعه لطلاب العلم ، بل حق طلاب العلم أن نذكر لهم صنيعه ليقفوا عليه، وهو فيما أحسب من أنفعِ من يدرس صنيعه في التحقيق ، وفي الدرس ، وفي التذوق ، وفي الصبر على إتقان العمل ، أحسبه ذلك ولا أزكّي على الله َ- عزّوَجلّ - أحدًا.

◆◆◆

المهم أني سوف أنظر– إن شاء الله تعالى – في عدة مجالات من القول في الطبقات لما تشتمل عليه من قضايا نقدية رأيت أهميتها لطلاب العلم الذين أعددت لهم هذِه الأوراق من نحو قضية جوهر الشعر ،وقضية الطبقات وقضية سمات الفحولة . . .

المجال الأول: جوهر الشعر..

توطئة : يبينُ الحَقّ - جَلّ جَلالُهُ - أنّ ما أوحاه إلى النبي - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِه وسلّمَ - يفارق الشعر في جوهره :(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) (يَس: ٦٩)

في هذا بيان قاطع على أنّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قد حاجز بين رسولِه - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِه وسلّمَ - وبين تعلُّم الشعر، فذلك مما يَعْجَزُ عنه النبيُّ - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِه وسلّمَ - عجزَ العالمين أجمعين عن أن يأتوا بسورة من مثل القُرْآن الكَريم ، وإذا ما عجزه - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِه وسلّمَ - عن أن يقول بيت شعر ، وإن دنا منزله في الشعرية ، فكيف يكون - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِه وسلّمَ - هو القائلَ هذا القُرْآنَ الكَريمَ المعجزَ العالمين من عند نفسه ؟ !!

المهم أنّ الله - عزّ وَجلّ - لما قرّرَ عجزَ النبيّ - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِه وسلّمَ - عن أن يقول شيئًا مما تستطيعه نساؤهم من قول الشعر، وهم أعلم بحقيقة هذا الشعر وسماته التي يفاصل ما دونه من البيان الإنسانيّ قرر الله - عزّ وَجلّ - حقيقة القُرْآن الكَريم :(إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) فصاغ البيان عن تلك الحقيقة في أسلوب قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا وزاد هذا تصريفًا وتبيينًا وتوكيدًا بقوله - جَلّ جَلالُهُ - :

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) (الحاقة: ٤١-٤٢)

فدلّ ذلك دلالة بيِّنَة على أنّ ما بَيّن القرآنُ الكريمُ والشّعْر من مفارقةٍ ومفاصلةٍ إنّما هوفي الجوهرِ، وليس في أداة الإبانة .
وكان عليًّا أن جمع هنا بين نفي أن يكون الْقُرْآن الْكَرِيم قول شاعر، وأن يكون قول كاهن ، فقول الشاعر يمتاز في معناه ومبناه ومرماه أيضًا عن قول الكاهن في هذه الأبعاد الثلاثة .

وليس شيء من بيان الشاعر وبيان الكاهن بملتق في مبناه ومعناه ومرماه مع الْقُرْآن الكَريم مبنى ومعنى ومرمى،وإن اتخذ الثلاثة الكلمة العربية مفردة ونحو العربية تركيبًا أداة،فكلمات الْقُرْآن الكَريم مفردةونحوتراكيبه في طورالتجريدالقاعديّ لايباعد مفردات اللسان العربي ونحوه في أي مستوى من مستويات الأداء عندهم .

وهذا يستوجبُ أن يُعْنَى المسلمُ بالوقوف على جوهرِ الشّعر ، فإنّ في مثل ذلك عونًا على أن يفقه ما في الكتاب العزيز.

وقد أدرك أهل مكة حين يَثوبُون إلى أنفسهم أنّ ما وصَمُوا به الصّادق الأمين بأنّه شاعرٌ، وأنّ ما جاء به الشعرُ إنّما هو مَعَرّةٌ لهم إذ مآل مقالهم عيبهم بالجهالة بجوهر ديوانهم وعلمهم الذي ليس لهم علم غيره : الشعر ، ومن هنا كان " الوليد بن المغيرة " جهّارًا بما اعتلج في صدره من قولهم " إنّ القرآنَ شعرٌ " ، وإنّ الصادق الأمين - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ - شاعر، فجاءت الأخبار بأنّه ردهم عن ذلك القول بإنّه المعرة لهم ، وأقترح عليهم من بعد طول مراجعة أن يقولوا : إنّه ساحر :

(إنّهُ فكّرَ وقدّرَ ◆ فَقُتِلَ كيْفَ قَدّرَ ◆ ثُمّ قُتِلَ كَيْفَ قَدّر ◆ ثُمّ نَظَر ◆ ثُمّ عَبَسَ وَبَسَر ◆ ثُمّ أدْبَرَ واستَكْبَر ◆ فَقَالَ إنْ هَذَا إلاّ سِحرٌ يُؤْثَر ◆

إنْ هَذَا إلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ) (المدثر: ١٨-٢٥) ([1])

وكذلك جاء عن " أنيس " أخي " أبي ذر " -رَضيَ اللهُ عَنْهُما - ، وكان شاعرا : " تالله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر([2]) فلم يلتئم على لسان أحد" ([3])

الوليد ، وأنيس أدركا المفاصلة التامة بين الشعر والقرآن الكريم ،وكان هدْيُ الله - عزّوَجلّ - لأنيس ، ولم يكن للوليد ، فإنّ أنيسا استثمر عرفانه باستنتاج الحق والإيمان به ، والوليد أعرض عمّا ظهر له من الحق وبحث عن طريق آخر يؤيد به باطل قومه .

المهم أنّ مثل هذا يصور لنا عظيم عِرفان العرب بجوهر الشعر ، وما يكون منه وما لا يكون ، وهو عرفان باطنيٌ تتسع له النفس وقد تعجز الألسن عن تبيينه ووصفه ، فكم من أمورٍ هي كذلك جلية في النفس ، ولكن الألسن تكلُّ عن الوفاء بحق حقيقتها في الإبانة والوصف ، وذلك من لطفها ودقتها .

وهذا وإن كان غير خفي في شأن العرب من قبل المبعث ، ومن قبل تدوين المعرفة ، فإنّ طبيعة الشعر تجعله ممتدا لا يتناهى لتبقى بعض معالم جوهر الشعر عصيّة عن التبيين اللسانيّ ، فظل

([1]) راجع: النهاية في غريب الحديث فصل الرجز ، والرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجانيّ ص ٥٨١ - ملحقة بدلائل الإعجاز : ط شاكر ،وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٩،

([2]) أقراء الشعر جمع قَرْء أي على طرق الشعر وبحوره ، وكأنهم سموه بذلك لما فيه من معنى الجمع كمثل ما سمي الدم المجتمع في المرأة قرءًا لا جتماعه وسيلانه أو هو قوافيه ، وكأنهم سموا قوافي الشعر أقراء من أنها منقطع نغم البيت وحده كمثل منقطع الدم للمرأة سمي قرءً بضم القاف .

([3]) الرسالة الشافية ص ٥٨٤- ملحقة بدلائل الإعجاز

الإدراك الباطني لما هو شعر، ولما هو ليس بشعر أمرًا قائما في نفوس كثير من العرب قبل المبعث المحمديّ.

ولا تكاد تحظى بما يكشف عن معالم التصور التجريديّ لمفهوم الشعر عند العرب فيما جاءنا من أخبار في القرنين الأولين من المبعث،وإن كان في بعض المقولات الموروثة ما يشير إلى بعض معالم الشعر ، وما يدخل في السّمات الذّاتية لما هو شعر بل تكاد تلمح شيئًا من ذلك فِي بعض ألقاب الشعراء كالمهلهل ، وصناجة العرب: الأعشى، والمحبّر: طفيل الغنوي،والمتنخل: مالك بن عويمر ،والمزرد: يزيد بن ضِرار،وعبيد الشعر، وغير ذلك من الألقاب التي مردُها إلى عالم الإبداع الشعري. وبقي الوعي بجوهر الشعر وعيًا باطنيًا تدركه القلوبُ ، وتكلُ الألسنُ عن الوفاء بحق التبيين،وهذا ليس بالخاصّ بالأقدمين من المبدعين والناقدين فيما قبل زمن المبعث المحمديّ وما بعده بل إنا لنجده يمتدُ إلى زماننا هذا ، فالشاعر الفلسطيني " محمود درويش" يجاهر بعجزه عن تبيان جوهر الشعر : " إنني لا أعرف ما هو الشعر. ولكنني بقدر ما أجهلُ هذه الماهية أعرفُ تمام المعرفة ما ليس شعرًا .

ما ليس شعرًا بالنسبة لي هو ما لا يُغَيِّرُني ، ما لا يأخذ مني شيئا ، ولا يعطيني لوعة وفرحا هو ما لا يقدم لي مبررات وجودي وإقامتي على هذه الأرض...(١)

(١) هذا الذي يقوله الشاعر الفلسطيني :"محمود درويش " يبين جليل رسالة الشعر في الحياة ، شريطة أن يأخذ الشعر منّا خبث الإنسانية ويمنحنا طهر الآدمية ، يذكرنا بالنعمة الفارقة بيننا وبين سائر الموجودات ، يذكرنا برسالة الاستخلاف ، وفريضة استعمار الأرض ، وعيار كل ذلك أخذًا وتركًا في بيان الوحي ،وليس الشعر بالمؤسس ذلك العيار بل هو أداته وآلته وسبيل تحقيقه بما أقيم فيه من اقتدار على التسلل فينا في لطف حبيب إلى النفس السوية .

إنّ إدْراكي لما ليس شعرًا هو طريقتي في الاقتراب من إدراك الشعر ،لأننا بالواضح نفسرُّ الغامض ، وليس بالعكس"([1])
هذا العيار السّلبي هو أصدق وأقرب،فإنّ النّفسَ أكثرُ إحساسًا بما هو ذو أثر سلبيٌ.تشعر بما هو عقيم؛ لأنها متطلعة دائمًا إلى العطاء،فإن لم تجد فيما تطلّعت إليه ما تفتقرُإليه أوترغبُ فيه أحسّت به إحساسًا قويًا،وهذا يجعل الإدراك أقربَ إلى الموضوعية في الإحساس بما ليس بشعر منه في الإحساس بما هو شعر.
وقد يظنّ أن الأعلى أن يكونَ البيانُ عن الأشياء بما هو ثبوتيّ لا ما به سلبيّ ، فلا يقال : الأبيضُ ما ليس بأسودَ مثلا ، وهذا حقٌ فيما هو موضوعيّ متعين أمّا ما كان مما تدركه القلوبُ ، وتعجزُ الألسنُ عن كشفِ حقيقته فإنّ الأمر لا يجعل من التعريفِ السلبيّ مجاوزةً منهجيّةً بل هو أقربُ إلى حقيقة ما يراد تعريفه والإعلام به .
والاستعانة بمعرفة ما ليس بشعر في العِرفان بما هو شعر تجد له أصلا في مقالة ستأتيك – إن شاء الله – لابن سلام الجُمحِي .

***

الكشف عن جوهر الشعر ومفهومه ذو صعوبة أدتْ إليها طبيعة الشعر غير الموضوعية ، فإنّ كلّ ما هو موضوعيّ متعيّنٌ تتلاقى الناس في الإحاطة بوعيه ، ومالا يتفاوتون في وعيه لا يكون من جوهر الشعر، فلجوهره نصيب من غموض جوهر الروح القائم في الوجود الإنساني لكلٍّ منا . فهل يملك أحد أن يكشف لنا عن جوهر

[1]) مقال اتقذونا من هذا الشعر في مجلة الكرمل العدد السادس ١٩٨٢- نقلا عن كتاب (نظرية الشعر – مرحلة مجلة شعر القسم الثاني ص ٦٠٨- تحرير : محمد كامل الخطيب – دمشق – وزارة الثقافة ١٩٩٦

الروح التي بين جنبيه ، والتي بها كان إنسانا سخر له ما في السموات والأرض جميعا من خالقه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؟

وإذا ما كان هذا منزِل مفهوم الشعر وجوهره من غموض المعالم الرئيسة ، فإنّ ذلك لم يمنع بعض أهل العلم بالشعر أنْ يكونَ لهم مقالٌ يُتبيّنُ منه بعضُ معالم مفهوم الشعر ، وقد كان من أولئك " ابن سلام الجمحي " في كتاب (طبقات فحول الشعراء)

◆◆◆

لم يشَأ أن يضَعَ " ابن سلاّمٍ " مفهومًا للشعر عنده يُغنينا عن أن نتلمسَهُ من كلامه في " الطبقات " ، وهو فيما أذهب إليه يمكن أن نقف على بعض معالم ذلك المفهوم عنده من شذرات من كلامه ومن صنيعه في طبقاته .

نظرة في المفتتح:

أول ما يلفت البصيرة أن " ابن سلام " قد افتتح كتابه بقوله :

" ذكرنا العرب وأشعارها والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأيامها إذ كان لا يُحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ، كذلك فرسانها وساداتها وأيامها ، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ، ولا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب فبدأنا بالشعر "([1])

مفتتح يلقي في النفس سؤالا :

ما بال هذا الفعل الماضي في أصل الفقرة : " ذكرنا " ؟

أهو باق على وجه دلالته الظاهرة ؟ فأين يكون ذكره هذا ؟ فإن كان على منهاج قول الله - عزّ وجلّ - :(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ

[1]) طبقات فحول الشعراء – ت: شاكر ج١ ص٣

الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) (ابراهيم: ٢١)

فما بال قوله في رأس الفقرة : (فبدأنا بالشعر) وهو ما بدأ به وثناه بغيره من ذكر العرب وفرسانها وأشرافها وأيامها في هذا الكتاب: "طبقات فحول الشعراء" ؟

أفيكون ذلك الذي امتدت إليه رغبته فأعجلته المنية ، فاستخرج ابن أخته: "أبو خليفة" ما أنجز ، فلم يكن إلا بعضًا ممّا قال في شأن الشعر، فحينذاك يكون مشروع "ابن سلام" مديدا وسيعا ؟

إن لم يكن ما رغب فيه ابن سلام قائما في هذا الكتاب الذي وصلنا فإنّه قد قام في غيره ،فقد ذكر له "ابن النديم" كتاب بيوتات العرب ، وجعل كتاب "الطبقات" كتابين :" كتاب طبقات الشعراء الجاهليين" و" كتاب طبقات الشعراء الإسلاميين" ، وذكر لابن أخته أبي خليفة " كتاب :" طبقات الشعراء الجاهليين ، وكتاب الفرسان" ولعله قد وهم ، فنسب إلى أبي خليفة هذين الكتابين وهما لخاله ابن سلام ، وما أبو خليفة إلا راويهما(١)

وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني لابن سلام كتاب " الفرسان" وهي كتب قد جاءت من بعد كتاب طبقات فحول الشعراء ، من أنه قال : " فبدأنا بالشعر" .(٢)

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٤٣- ت: ابراهيم رمضان - ط : دار المعرفة بيروت

(٢) يصور لنا أبو فهر عن حدس قام به أن ابن سلام لقي في بغداد من الحفاوة ما لقي وكانت علة قد أخذ ت به ثم انفرجت واطمان قلبه قليلا ، وعاده أهل العلم والرواية يحفون به ويسألونه ، وعاوده أمل تقادم عهده أن يؤلف للناس كتبا تبقى في أيديهم من بعده ، وأول كتاب "طبقات فحول الشعراء" دال ==◄

فهل لنا أن نقول أننا لو ضممنا كتاب " بيوتات العرب" ، وكتاب "الفرسان" ، وما جاءنا من كتاب " طبقات فحول الشعراء" يكون مشروعه العلمي قد قارب الاكتمال ؟

المهمّ أنّه من بعد هذا المفتتح يقطع مساق القول فيما جاءنا من النسخة المنشورة ، ويأتيك من بعد هذا عبارتُه : " وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ... "

وهي تحمل طابع المفاجأة والاقتحام .

ما بال هذه "الواو" في قوله : (وفي الشعر مصنوع) ؟

أتؤسس ما بعدها على أمر قد سبق عند "ابن سلام" فما جاءنا عنه بيان أم أنّها "واو استئناف" أو "واو حال" - ولا أخالها كذلك - ويكون المعنى عليها : فبدأنا بالشعر والحال أن في الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه " .

كأنّه يلقى في نفوسنا صورة ما سيلقاه من شأن القول في الشعر ، حتى لا يظن ظانٌ أنّ القول فيه على مثله هيِّن ليِّن ، فألقى بها بيانا

◄ == على أنّ الذي وصفت لو قريبا منه قد كان كما وصفت ، فإنه بدأ الكتاب هكذا :" ذكرنا العرب وأشعارها ،والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها ..." فكأن أهل العلم يومئذ قد ذاكروه وذاكرهم، ولعله أفضى إليهم بما في نفسه ، كما قال في حديثه مع " ابن ما سويه" الطبيب :" وقضيت أشياء في نفسي" يعني تأليف كتب تبقى في أيدي الناس ، فسأله أصحابه من أهل العلم أن يفعل ، فاستجاب لهم..." (ص ٥٠- قضية الشعر الجاهلي)

كذلك نسج حدس أبي فهر وقرر أن الذي في نفس ابن سلام تأليف كتب تبقى في أيدي الناس، وليس في يد أبي فهر دليل واحد على أن ذلك الذي كان في نفس ابن سلام حين قال عبارته تلك .

الذي هو أقرب عندى أن البيان بالماضي عن المضارع - في قوله (ذكرنا ...فبدأنا بالشعر) إنما هو من منهاج العرب في البيان عما لم يقع بما وقع لتوكيدَ العزم على إيقاعه .

لعويصةٍ تحار في الخروج منها أحلام العلماء ، ويكون في هذا حافزٌ لمن يتصدى للنظر في كتابه أن يوطّن نفسه على المثابرة والمصابرة . أيمكن أي يكون هذا ؟ ! لا أكاد أظنّ ذلك .

وهل لنا أنْ نذهبَ إلى أنّ جعل " الواو" استئنافية أقربُ فهما ، فهي في مفتتح كلام معترض به سياق القول الأول ؟

المهم أنّ المفتتح مثيرٌ، وهذا يقيمُ في أنفسنا معذرة لابن سلام في إعراضه عن أن يضع مفهومًا للشّعر يحفظُ عنه كما تحفظ مفاهيم العلوم .

وكأنّي أذهبُ إلى أنّ هذا من حصافة "ابن سلام" وفقهه طبيعة الشعر وجوهره ، فما يكون العلم بالشعر كمثل العلم بالنحو والفقه ، وغيرهما من العلوم الموضوعية التي لا يتباعد الناس في فقهه أصولها ، وإن تباعدوا في فروعها .

إذا لم يكن قد صرح بمفهوم الشعر عنده فإنّ لنا أن نلتمسه من كلامه في "الطبقات" ، وهو ما نسعى إليه من النظر في قوله : " وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ... " .

وقوله : " وللشعر صِناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات " .

وقوله في شأن " محمد بن إسحاق " صاحب السير: كان من علماء الناس بالسير ... فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذرمنها، ويقول: لا علم لي بالشعر، أتينا به ، فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذرا ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قطُّ ، وأشعارَ النساء فضلا عن الرجال ، ثُمّ جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة ، وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ)

قوله : " وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف " ذو أهمية بالغة في تلمس مفهوم الشعر عنده .

ومما يتلمس أيضا فيه مفهوم الشعر عنده ما يتوافد على قارئ (الطبقات) من مصطلحات نقدية استخدمها "ابن سلام"

وفوق هذا دلالة بعض ما رواه واختاره من الشعراء وأشعارهم فإنّ اختيار الرجل يَنُمُّ عن ذوقه وعقله ، ومثل "ابن سلام" الشأن فيه أنّه لا يختار ، ولا يروي ولا يدوّن إلا من بعد مدارسة ورويّة مَبْنِيّةٍ على دراية وعلم وبصر.

وإذا كان مثل هذا متسعا لا يحاط به ، ولا أجد في الجهد والوقت ما يعين ، فإنّ التوقف عند بعضٍ قد يعين على حسن فقه مفهوم الشعر عنده



مقالته فيما رواه ابن إسحاق من أشعار

نظر" ابن سلام " فيما جاء من أشعار في سيرة "ابن إسحاق " فرأى أنّها ليست من باب ما صحت نسبته إلى شعراء العربية فيما قبل المبعث وما بعده.

فبدأ بيانه ببيان منزل " ابن إسحاق " من العلم بغير الشعر قائلا :

" وكان من علماء الناس بالسير، قال "الزهري" :

" لا يزال في الناس علمٌ ما بقي مولى آل مخْرَمَة ، وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك "(1)

(1) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٨

وعلى الرغم من منزله العليّ في هذا الباب من العلم إلا أنه كان فقيرا في علم الشعر ، وهو معترف بذلك يقول " لا علم لي بالشعر. أُتينا به فأحمله "

وهذا إن كان حميدا اعترافه به فغير حميد وقوعه فيه ، ولا سيما أنّه غير مضطر إلى حمله وإقامته في سيره فإنّها قائمة محمودة بغير تلك الأشعار(١)

" ابن سلام " قد أعطى الرجل حقه فيما يحسن من العلم ، وفي هذا إشارة منه إلى أنّ على العالم ألا يلج في القول بأمر هو ليس بالخبير فيه . ومن ثَمّ قَضَى " ابن سلاّم " أن " ابن إسحاق " ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كلّ غثاء منه... "

فلما كان ذا منزلٍ عليٍّ في رواية الحديث وعلم المغازي ظنّ الناس أنه بذلك المنزل في رواية الشعر ، فقبلوا عنه الأشعار على الرغم من اعتذاره بأنه " لا علم له بالشعر " وكان هذا كافيًا بأن يصدّ الناس عن الأخذ منه ذلك الذي لا علم له به ، ولكن الدهماء لا ترى خطرًا في مثل هذا.

يقول " ابن سلام " مقومًا ما جاء به " ابن إسحاق " :

" كتب لهم أشعارا كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ".

مقالة نفتقر إلى التلبث عندها لعلّنا نبصر فيها بعضًا من مكنونها نفى الشعرية عما رواه "ابن إسحاق : (وليس بشعر) كذلك على نحو من التوكيد الجازم وهذه " الباء " الآتية في خبر" ليس " المفعمة

(١) يقول ابن النديم: (يقال: كان يعمل له الاشعار ، ويؤتى بها، ويُسألُ أن يدخلها في كتابه " في السيرة" فيفعلُ ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر) (الفهرست : ١٢١- ط:بيروت ١٤١٧)

بفيض من النفي والتجريد والتعرية والاستفراغ لتلصق تلك المعاني التي أترعت هذه الكلمة: "ليس" بمدخولها: (مروي ابن إسحاق مما زعم أنه شعر) فعرّته وجرّدته ونفته نفيا صارما من حرم الشعر.

وهنا يقيم في قلوبنا عرفانا بحقيقة ما رواه " ابن إسحاق " من بعد أن جرده وعراه تماما من الشعرية قائلا:

(إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف)

مقالة دالة على أنّ ما وصفه به من النعوت لم يجعله أهلا لأن يلج حرم الشعر: (مؤلف معقود بقواف) فالتأليف والعقد بالقوافي لا يجعل البتة الكلام شعرا.

هذا بيان جازم من "ابن سلام" أن التأليف والقوافي ليس هي الجوهر في مفهوم الشعر عنده إنْ تحققتْ تحققت له الشعرية.

ابن سلام لم ينف عما روى " ابن إسحاق " أن يكون ذا معنى تقبله العقول فقد سماه كلاما، وهو لا يكون كلاما إلا إذا كان ذا معنى تصححه الأفهام، بل ربما يكون هذا الكلام بمعناه ذا أثر فيمن يسمع، ولهذا قال (كلام) ولم يقل (إنما هو قول) إذا ما زعمنا أن ابن سلام يستحضر في وعيه العلمي الفرق بين ما هو كلام وما هو قول، وأن سمة التأثير في السامع ملحوظة فيما يسمى كلاما غير ملحوظة فيما يسمى قولا من بيان البشر.(1)

---

(1) يقول " ابن يعيش :" اشتقاق الكلام من الكلم ،وهو الجرح، كأنه لشدة تأثيره ونفوذه في الأنفس كالجرح ؛لأنّه إن كان حسنًا أثّر سرورًا في الأنفس ،وإن كان قبيحًا أثّرَ حزنًا ... وغير المفيد لا تأثير له في النفس " (شرح المفصل : ٢١/١)

المهم أن " ابن سلام " أثبت لما رواه " ابن إسحاق " أنّه ذو معنى ، وهو برغم أنه ذو معنى ليس بشعر، فدلّ ذلك على أنّ المعنى العقلي ليس هو جوهر مفهوم الشعر ، ولو كان لكان كلُّ كلام ذي معنى له من الشعر نصيب ، وهذا لا يقوله أحدٌ له أدنى إلمامٍ بالشعر.

وهذا الكلام أيضا مُؤلّفٌ ، أي أنّ العلائق بين مكوناته اللسانية فيما بينها قائمة على علاقة التآلف ، وهي منزلة من منازل العلاقات بين عناصر الكلام ، فعبد القاهر في بيانه شأن البلاغة عند الأقدمين يقول " والمعوّل عليه أن ههنا نظمًا وترتيبًا وتأليفًا وتركيبًا "

والعلائق بين مكوناته اللسانية ومكنوناته المعنوية قائمة على التآلف أيضا ، وبرغم من ذلك لم يجعله ذلك أهلا لأن يلج حمى الشعر ، فدلّ على أن حقيقة الشعر عند ابن سلامٍ لا تقوم على العلاقات التأليفية بين عناصر المكونات اللسانية في نفسها من جهة وبينها وبين المكنونات المعنوية من أخرى .

وهو يَسِمُهُ أيضًا بأنّه معقودٌ بقوافٍ ، والعقد بالقافية قد يلقي على الكلام بَرّانيّة الانتساب إلى الشعر، فيظن من عَشِيَتْ بصائرهم ووهنت الذائقة البيانية عندهم أنّه إذا ما كان الكلام ذا معنى مؤلفة مكوناته ومكنوناته وعقد ذلك كلُّه بقافية هي قُفل البيت وتاجُه فهذا الكلامُ شعرٌ.

يأبَى "ابنُ سلام " أن يكونَ هذا أمرًا جوهريًّا في مفهوم الشِّعرِ عنده ، و إلا لعُدّ كثيرٌ مما نسمعُ شعرًا وهو في حقيقته لا يَعْدُو أن يكونَ نظمًا خَواءً من رُوحِ الشِّعْرِ.([1])

---

[1]) إذا ما كان " ابن سلاّم "لا يرى جوهر الشعر في أنّه كلام مؤلفٌ معقود بقوافٍ ، فإنّه لم يكن بالمتغافل عن قيمة التأليف والوزن والقافية في جودة ⟸

تبين لك أن " ابن سلام " قد جرّد هذه السمات التي يتّسم بها البيان من أن تكون هي التي بها يلج الكلام حمى الشعر ، وهذا يدفع إلى أن يستشرف إلى معرفة السمات الجوهرية التي بها يكون البيان شعرا

❖❖❖

وثَمَّ مقالة أخرى سبقت في بيان " ابن سلام " مقالته " وليس بشعر، وإنّما هو كلامٌ مؤلَّفٌ معقودٌ بقوافٍ " أرى أنها كالمهدة لها ، وأنها قد بدأ بها توطئة للقول فيما صنع " ابن اسحق " .

تلك قولته : « وفي الشعر مصنوعٌ ، مُفْتَعَلٌ ، موضوعٌ كثيرٌ ، لاخير فيه ، ولا حجة في عربية ، ولا أدب يُستفادُ ، ولا معنى يُستخرجُ ، ولا مثل يُضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مُقذع ، ولا فخرٌ مُعجب ، ولا نسيب مستظرف »(١)

⇐ الشعر وتميزه، ولذلك نجد في تضاعيف كتابه الطبقات يشير إلى فضل التأليف والوزن والقافية ، وأثرهما في إعلاء منزلة الشعر

(١) طبقات فحول الشعراء ج١ ص ٤

يستظهر أبو فهر أن هذه الفقرة الثالثة قد أقحمها ابن سلام بين الفقرة الثانية ، والفقرة الحادية والثلاثين في النسخة الثانية من كتابه الطبقات بأخرة من عمره ، وأن سياق الكلام في النسخة الأولى كان :"...... فبدأنا بالشعر ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية ..."

وأن ابن سلام أعجلته المنية من جهة ، وأنساه تقدم السن أن يقيم نسق الكلام فيدرج الفقرة الثالثة وما بعدها إدراجا يلحم نسيج بيانها بما قبلها، وهذا من أبي فهر استظهار،لا استنباط !!!

يقول "أبو فهر":" وإذن فترتيب سياق المقدمة جملة هو هكذا : السياق الأول : (١ ،٢) ثم (٣١) إلى(٥٥).

السياق الثاني: من (٣) إلى (١٣)

السياق الثالث: من(١٤) إلى (٣٠) ⇐

⇨ ووضوح هذه السياقات الثلاثة المتداخلة ، والفصل بينها واجب مهم جدًا لمن يريد أن يفهم ما يريد "ابن سلام" بكلامه، وهو أشدّ وجوبا لمن يحلل ألفاظه ، وجمله بغية الوقوف على مقاصده ، بلا خلطٍ بين كلامين مفترقين متباينين .
وبين جدًا أنّ "ابن سلام" قد قطع كلامه في الفقرة الثانية التي يعرض فيها نهج كتابه ، والتي وصلها بعد ذلك بزمان في الفقرة الحادية والثلاثين إلى الخامسة والخمسين ، معترضا مستطردًا بفصلين مختلفين : أولهما عن "المصنوع " من الفقرة الثالثة إلى آخر الثالثة عشرة، وثانيهما عن علماء العربية من الفقرة الرابعة عشرة إلى الفقرة الثلاثين(ص١٢-٢٣)

راجع : قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام لأبي فهر محمود شاكر ص٢٥-٢٦- ط:المدني سنة١٤١٨- مكتبة الخانجي – القاهرة)
ويرجع أبو فهر ذلك إلى أن ابن سلام كتب نسختين من الطبقات ثانيتهما في آخر أيامه ، وأن الأولى لم يكن فيها ذلك الخلل يقول :
" ...أستطيع الآن أن أقول،وأنا مطمئن كلّ الاطمئنان : أن صنيع ابن سلام حين انتهى من الفقرة الثانية من كتابه في أصله الأول من نسخته الأولى ،فقال:...." فبدأنا بالشعر " كان كلامه متصلا بالفقرة الحادية والثلاثين حيث يقول :" ففصلنا الشعراء...." فلما أعاد كتابة هذا في النسخة الثانية بدا له على عجل أن يقحم في كلامه هنا خاطرا جديدا في الحديث عن المصنوع المفتعل الموضوع ،ففصل بين الكلامين المتعانقين تعانقا تاما بما اثبته من أول الفقرة الثالثة إلى آخر الفقرة الثلاثين...." السابق ص ٥٣)
وكل هذا من أبي فهر حدس ، وضرب في سراديب الغيب جعله يكمل القصة حدسا بما كان من أثر يحيي بن معين في أن يلفت نظره إلى استكمال كتابه فأقحم ما أقحم إلى آخر السياق الذي قصه أبو فهر ،وهو لايعدو أن يكون حدسًا .

***

لوَ يُمكنُ أن أذهبَ إلى أنه قد يكون قوله :(وفي الشعر مصنوع مفتعل) إلى آخر قوله: (وأعلم من ورد علينا من غير البصرة : المفضل بن محمد الضبي الكوفي) (الفقرة ٣ –٣٠) وقع هذا الموقع لخلل في ترتيب أوراق النسخة المخطوطة التي كان عليها النسخة المحققة أو ما هو أقدم منها ، وأن هذه الفقرات من الثالثة(ف ٣) إلى الثلاثين (ف ٣٠) موضعها نهاية الفقرة الخمسين (ف :٥٠) فيكون نسق البيان على هذا النحو :
الفقرة الأولى والثانية ، ثم الحادية والثلاثون إلى الخمسين ، ثم الفقرة الثالثة إلى الثلاثين، ثم الفقرة الحادية والخمسون إلى الخامسة والخمسين . ⬅

" ابن سلام " هنا قد اتخذ موقفا في الإبانة عمّا يكون به البيان شعرا عنده هو موقف البصر بسمات ما لا يكون شعرا من البيان ، وكأنّ الإعلان عمّا هو منفي عنه الشعر أيسرُ من الإعلان عما به يكون البيان شعرا ، وتلك سهولة آتية من أنّ المنفيّ أقرب إلى الموضوعية والتعين كما سنرى ، وما يكون به البيان شعرا أبعد عن الموضوعية والتعيُّن ، فلطف ودق فاستعصى على الألسنة إبانةً ، وإن لم يستعص على الأفئدة إدراكا .

➡ ولو أنا قرأنا الفقر بهذا النسق لما بدا لنا خلل في ترتيبها، ولولا أني أتخوف الإطالة عليك ، وإلقائك في قبضة الملل لنسقت لك الفقر هنا لترى أنها على ما ذكرت ملتحمة ، ولكني أشير إلى ما بين آخر الفقرة الخمسين (ف : ٥٠) وأول الفقرة الثالثة (ف : ٣) من تلاحم :

"قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة أنّ ابن داوود بن متمّم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب ،والميرة، فنزل "النّحيت"،فأتيته أنا وابن نوح العُطارديّ ، فسألناه عن شعر أبيه ، وقمنا له بحاجته ، وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه ، جعل يزيد في الأشعار، ويصنعها لنا، وإذا كلامٌ دون كلام "متمم"، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمّم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله.

وفي الشعر مصنوع موضوع مفتعل كثير لاخير فيه..."(الفقرة ٥٠ ، والفقرة ٣)

ألا ترى تلاحم القول ؟.

ويزيدك بيانا أن تقرأ الفقرة الثلاثين (ف : ٣٠) مشفوعا بها الفقرة الحادية والخمسين (ف : ٥١) :

"وكان الأصمعي وأبو عبيدة من أهل العلم

وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة : المفضل بن محمد الضبي الكوفي .(ف :٣٠)

وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية......"(ف:٥٢)

وكأنه بيَّن بالفقرة الحادية والخمسين مبتدأ الصنع والافتعال والوضع.

والظن أن القول بأن أوراقا في النسخة المخطوطة قد وقع خلل في ترتيبها أيسر، وأبين من الحدس الذي حدسه " أبو فهر" وبنى عليه ما بنى .

فهذا طريق لنا أن نصل منه إلى أهم سمات ما هو شعر عند " ابن سلاّمٍ " ، وهو ما يعرف عندَ علماءِ أصولِ فقهِ بيانِ الوحْيِ بمفهوم المخالفة،وهو طريقٌ قويمٌ تساق على لاحبه كثيرٌ من أحكام الشريعة الغراء.

لِلنظرْفي سمات البيان المنفي عنه أن يكون شعرا :

- مصنوعٌ ، مفتعلٌ ، موضوعٌ.
- لا خير فيه
- لا حجة في عربية
- لا أدب يستفاد
- لا معنى يستخرج
- لا مثل يضرب
- لا مديح رائع
- لا هجاء مقذع
- لا فخر معجب
- لا نسيب مستظرف [1]

هذه سمات ما لا يكون من البيان شعرا ، وهي سمات نفتقر إلى التبصُّر فيها لعلّنا نهتدى إلى بعض معالم مفهوم الشعر عند "ابن سلام"

اذهبُ إلى أنّ قوله : " مصنوع مفتعل موضوع " وصف لموصوف محذوف هو المسند إليه قوله (في الشعر) والمعنى وفي الشعر المروي والمجموع في الكتب ،نظم مصنوع

(١) طبقات فحول الشعراء ج١ص٤ ـ ت شاكر

هو لا يصف بعض الشعر بأنّه مصنوع ، لأنّ هذا المصنوع ليس شعرا البتة ، فكيف يجعل بعض الشعر.

أنت إن قلت : قرأت الشعر إلا المصنوع المفتعل الموضوع .

قلنا لك : إن الاستثناء هنا منقطع وليس متصلا ؛ لأنّ ما بعد (إلا) ليس من جنس ما قبلها .

إنّ الشعر لا يكون منه مصنوع مفتعل موضوع كما أنّك لا تقول عن شيء هذا من السنة النبوية الموضوعة فإن قلت قلنا لك : كلامك يطعن بعضه بعضا .

إن كان سنة نبوية فلن تكون موضوعة ، وإن كان موضوعا فلن يكون سنة نبوية . مجرد تسميتها سنة نبوية عصمها من أن توصم بالوضع ، وكذلك مجرد تسميته شعرا عصمه من أن يكون مصنوعا مفتعلا محمولا .([1])

❖❖❖

ويبقى النظر في قوله : (مصنوعٌ) .

أيكون مراده الصنعة التي هي شرف الطبع ونقيض التكلف ؟

لن يكون ذلك أبدا مراد "ابن سلام" .

ذلك أنّه القائل من بعد ذلك بأسطر:

([1]) يقول أبو فهر :"(أنا لا أشك أنّ " ابن سلام " لما جاء مقتحمًا متهجما على بديهة لفظ " الشعر " كاد يفلت لسانه ، فيقول : " وفي الشعر "شعر" مصنوع مفتعل موضوع..." ولكنه أمسك وردَّ اللفظ مستنكفا متقذرا من تسمية هذا الكلام المسلوب كل فضيلة " شعرا " فقال : وفي الشعر مصنوع موضوع " لأنه أبَى من أن يجعل هذا الشيء المتقذر قسيما للفظ الشعر الشريف النبيل المحكم أو نظيرا له أو بعضا منه وعجل بقلم يغير ما ابتدأ به ، افاض في سلب الفضائل عما تقذره من الكلام...)(قضية الشعر الجاهلي لأبي فهر - راجع ص :٢٩- ٣٦ ، ٣٩ – ٤٣ ، ٧٨ - ٨١)

"وللشعر صِناعة وثقافة" فهذه صنعة غير تلك .

يقول "أبو فهر" في تعليقه : "لا أدري ما يريد به "ابن سلام" : أيريد ما صنعته القبائل أو بعض الكذابين أم يريد أنّه محمول على الشاعر ، وهو من عمل شاعر غيره فإنّي رأيت "سيبويه" يقول في الكتاب وذكر بيتا من الشعر:

"وهو مصنوع على طرفة وهو لبعض العباديين" فهذا معناه : محمول على طرفة ، لا لأنه مما صنعه الكذابون أو القبائل..."(1)

الصنعة على هذا إمّا أنْ تكون اختلاقا لقول لم يكن من شاعر ثم ينسب على شاعر كالذي رواه "ابن إسحاق" منسوبا إلى عاد وثمود ، وإمّا أن تكون تزويرا ، فينسب إلى غير أبيه كأنْ يُنسب بيت خرج من قلب امرئ القيس فجرى على لسانه لعلقمة الفحل مثلا .

ومثل هذا ما جاء عن "سيبويه" إذ سمى بيتا قاله بعض العباديين ، فحمل على طرفة مصنوعا .

أي المعنيين يريد "ابن سلام" ؟

ونحن إذا ما مددنا النظر ألفينا "ابن سلام" يروي حوارًا جري بين خلاد الباهلي ،وخلف الأحمر ، قال فيه خلاّد لخلف :

"بأيّ شيءٍ تردُّ هذه الأشعار التي تُرْوَى ؟

قال له :"هل فيها ما تعلم أنتَ أنّه مصنوع لا خير فيه ؟

قال: نعم .

قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنتَ"(2)

---

(1) هامش طبقات فحول الشعراء ج1ص 4 ت: شاكر.

(2) طبقات فحول الشعراء ج 1 ص 7

سؤال " خلاد الباهلي " عن رد الأشعار المنحولة ، وليس عن رد الأشعار الوثيق نسبها القليل جودها وإحسانها . وهذا يفسر لنا أنَّ مدلول قول خلف (مصنوع لا خير فيه) هو موضوع منتحل ، وأنَّ " ابنَ سلاَّمٍ " مقتبِسٌ هذه العبارة : (مصنوع لا خير فيه) من أستاذه " خلف الأحمر " .

ونزداد بيانًا بأنْ ننظرَ في ما جاء من بعد كلمة " مصنوع " : من قوله : " مفتعل موضوع لا خير فيه ولا حجة في عربية... " فنعلم أي الوجهين من معنى مصنوع هو الذي يكون جديرا بما ذكره " ابن سلام " ؟

ما قاله شاعر فنسب إلى غيره أم ما لم يقله شاعر قط بل هو مختلق دعيّ ؟

قوله : (مفتعل) يوحي بأنَّ الصَّنعة صنعة اختلاقٍ ، وهذا ما يمكننا أن نبصره من المدلولات التي يكون لها لفظ الافتعال في اللسان العربي :

يقول " ابن منظور " : " ...ويقال شعر مفتعل إذا ابتدعه قائله ، ولم يحذه على مثال تقدمه فيه مَنْ قبله ، وكان يقال : أعذب الأغاني ما افتعل ، وأظرف الشعر ما افتعل .

قال ذو الرمة :

غَرَائبُ قد عُرفْنَ بكلِّ أفقٍ   من الآفاقِ تُفْتعلُ افتعالا

أي يبتدعَ بها غِناء بديعٌ ، وصوت محْدَثٌ .

ويقال لكلِّ شيءٍ يُسوَّى على غير مثال تقدَّمه : مفتعل ، مثله قول لبيد :

فرميْتُ القوم رشقا صائبا   ليس بالعُصلِ ولا بالمفتعلْ

... ويقال : عذّبني وجعٌ أسهَرَنِي ،فجاء بالمفتعلِ . إذا عانى منه ألما لم يعهد مثله فيما مضى له . ابن الأعرابي : افتعل فلانٌ حديثا إذا اخترقه ، وأنشد :

ذِكرُ شَيءٍ يَا سُلَيْمَى قَدْ مَضَى   وَوُشَاةٌ ينْطِقُونَ المُفْتَعَل

وافتعل عليه كذبا زورًا أي اختلق "(1)

دلّك هذا على أنّ الافتعالَ في لسانِ العربية اختلاقٌ .

و" ابن سلام " يروي عن " أبي عبيدة " ما يدلُ على أنه قد وصم ما ادعي على شاعر ما لم يقله بأنّه مفتعل ، وهذا ما تجده في الفقرة الخمسين(ف: ٥٠) من كلامه يقول:

" أخبرني أبو عبيدة أنّ ابن داوود بن متَمّم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدويُ من الجلب، والميرة، فنزل " النّحيت " ، فأتيته أنا وابن نوح العُطارديّ ، فسألناه عن شعر أبيه ، وقمنا له بحاجته ، وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه ، جعل يزيد في الأشعار، ويصنعها لنا ،وإذا كلامٌ دون كلام " متمم " ، وإذا هو يحتذي على كلامه ،فيذكر المواضع التي ذكرها متمّم،والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله ."(2)

الافتعال هنا اختلاق وهذا المعنى جدير بأنّ يكون متجاوبا معه معنى " مصنوع " فإن تلاحظ المعاني فريضة بيانية ، ولا أحسب أنّ " ابن سلام " بالمُضيِّعِها

وليس الوصفان هنا بالمترادفين ، ولكنهما المتجاوبان المتلاقيان : في المصنوع معنى العناية بإخراجه بحيث يكون على وجه يغتر به من كان عَجِلا ، فيظنُه من صلب الشاعر المنسوب إليه زورًا قد خرج

(1) لسان العرب :«ف ع ل»
(2) طبقات فحول الشعراء :ج ١ ص ٤٧-٤٨

؛ لماله من عظيم التّصنُّع في مشابهته شعر الشاعر المنسوب إليه اختلاقا ، فيشكل على بعض أهل العلم ، وهذا يكثر في من كان في شعره لينٌ ،فيسهلُ تصنع شعر يحمل عليه اختلاقا ، فيطرب فيه بعض أهل العلم بالشعر كما تراه فيما حمل على " عدي بن زيد " يقول "ابن سلام ":وعَدِيّ بن زيد كان يساكن الحيرة ويراكن الريف ،فَلانَ لسانُه وسَهُلَ مَنْطِقُهُ ، فحُمِلَ عليه شيءُ كثير وتخليصه شديد واضطرب فيه " خلف الأحمر" وخلّط فيه" المفضّل " ، فأكثر"([1])

فهذا ما يكون من " خلف " على الرغم من أنّه الذي يقول فيه " ابن سلام " : " اجتمع أصحابنا أنّه كان أفرس النّاس ببيت شعر ، وأصدقه لسانا، كنّا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبرا أو أنشدنا شعرًا أن لا نسمعه من صاحبه ".([2])

([1]) طبقات فحول الشعراء ج١ص:١٤٠

([2]) السابق ١/ ٢٣ = في مقالة " ابن سلاّم" في شان أستاذه خلف الأحمر دِلالة على ما كان يمتلكه " خلف الأحمر " ناقدًا من النفاذ إلى حقيقة ما ينظر فيه ، فكأنّه يفترسه من بعد عقله ،وذلك من حذقه العلم بما عقل ، فيتوغل في باطن ما ينظر فيه .وكأنّ في هذا دَلالة من " ابن سلاّم " على أنّ هذا هو الشّأنُ فيمن يكون العالم بالشعر ، لا يكفي أن يكون كثير الرواية عن الآخر ، بل لابدّ من أن يقارن الرواية المستفيضة الواعية دراية نافذة مستوعبةً مناحيَ ما يرْي ، وهذا ناظر إلى ما جاء عنه أيضا في الفقرة الخامسة والسادسة من كتاب (الطبقات ج ١ ص ٧ :تحقيق : شاكر)

وهو لا يكتفي بما ذكره من شأن أستاذه " خلف" فارس الدراية بل جعله أصدق الناس لسانًا في بابين: في رواية الأخبار ، وفي رواية الأشعار حتّى إنهم لا يبالون ألا يسمعوا الشعر من صاحبه ، وكأنّ في هذا دلالة على أنّ " خلفًا" كان مقتدرًا على الإنشاد والتّغنّي المصور العالم النفسيّ للشاعر حال الإبداع والإنشاد ، فصوت المنشد المتغني بروايته الشعر كالموسيقى التصويرية المكاشفة عن كثير من مطوي الأحاسيس والمشاعر، والأصل أن يتحقق ذلك في تغنّي الشاعر بشعره ، وقد يبلغ المنشد المتغني بشعر غيره ما يحقق ذلك التصور لما هو مقتدر عليه من استبصار تلك الأحاسيس من بعد وعيها .

فانظر قوله :(أفرس الناس ببيت شعر) فإنها كلمة ماجدة قوية الدلالة على ما يملكه "خلف" من الاقتدار على النفوذ في بيت الشعر ، فيعلم حقيقة انتسابه إلى من نسب إليه ،وهو برغم من ذلك قد اضطرب في شعر "عدي بن زيد" وذلك من شدة تشابه ما صنع وحمل عليه مع ما خرج من قلبه ، وما ذلك إلا من لين في شعر "عدي" أعان على أن يقتدر المختلقون على أن يقولوا ، وأن يحملوا عليه ما يشتبه ويشكل ، فالشاعر المتين الأسر يسهل على أهل العلم بالشعر استخلاص ما صنع عليه مما هو خارج من قلبه ولسانه

فقوله (مصنوع) ملحوظ فيه المعنى الذي ذكرت لك مضموما إليه المعنى الملحوظ في قوله (مفتعل) فكان تصاعدا في الوصف ،فيجتمع له وصفان التعمّل والاختلاق

ويأتي قوله من بعدُ :(موضوع) ليفيد معنى تعمّد الكذب ، فإنّ من معاني الوضع الكذبَ في نسبة الكلام إلى غير قائله تعمدًا ، فمعنى التعمد ملحوظ محفوظ . ولعله مأخوذ معناه من قول النبيّ صلى الله عليه وأله وصحبه وسلم : " من كذبَ عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار " (رواه الشيخان: البخاري: ك: العلم ، ومسلم ك: المقدمة والزهد)

فسمّى العلماء ما تعمد كذبه على النبي – صلّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلهِ وصَحْبِهِ وَسلَّمَ – موضوعا ، فيؤول المعنى إلى : وفي الشعر المروي كلام مجتهد في صنعه ومختلق متعمد كذبه ...

وهذا ما يبينه ويؤكده ما جاء من قول "ابن سلاّم" :

" فلمّا راجعت العربُ رواية الشعر ، وذكر أيّامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعرَ شعرائهم ، وما ذهب من ذكرِ وقائعهم ، وكان قومٌ قلّت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحَقُوا بمن له الوقائع

والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم ، ثُمّ كانت الرُّواة بعدُ ، فزادوا في الأشعار التي قيلت ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرُّواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولّدون ..." [1]

وإذا ما تبيّن لنا من هذا معنى المصنوع ، وكان "أبو فهر" قد تساءل في هامش العبارة من تعليقه حواشي "الطبقات" : "ولا أدري ما يريد به "ابن سلاّمٍ" ..." فإنك واجدٌ "أبا فهر" في كتابه (نمط صعب ونمط مخيف) وهو بصدد تحقيق نسب قصيدة (إنّ بالشّعْبِ الذي دون سلْعٍ لقتيلا ..) يقول : " بقي شيءٌ آخر أجده لزامًا عليّ أنْ أوضّحَهُ ... :

مرّ بك قول "ابن سلاّمٍ" في حمّاد الراوية أنه "كان ينحلُ الرجل شعر غيره ، وينحله غيرشعره" وقول "خلف" فيه أيضًا : "كنت آخذ من حمّادٍ الراوية الصحيح من الأشعار ، وأعطيه المنحول ،وكان فيه حمقٌ" ، ثُمّ قول "ابن قتيبة" ... إنّ خلفًا قال هذه القصيدة : "ونحلَها ابن أخت تأبّط شرًا" وكان يقول الشعر وينحله المتقدمين"

والخلط بين معنى "نحل" في كلام "ابن قتيبة" ومعناه في كلام "ابن سلاّمٍ" وخلف أدّى إلى لجاجةٍ ...

فـ"ابن قتيبة" إنّما يعني بقوله "نحلها" وينحله المتقدمين" هو أنّ يقول بعضُ رواة الشعر ، أو بعض المولّدين شعرًا ثُمّ ينسبه إلى المتقدمين من الشعراء ، فهو يستعمل اللفظ على وضعه في اللغة ، بمعنى : أنْ تُضيف قولاً أو تنسبه إلى من لـم يقله .

وهذا الضرب من الشعر ، ومن نسبته لا يقال له "منحول" إنما يقال له "موضوع" و"مصنوع"

([1]) طبقات فحول الشعراء : ج ١ ص ٤٦

وأمّا أن " ينحَل الرّجلُ شعرَ غيره ، وينحله غير شعره " و(هو) " المنحول" في كلام " خلف" و" ابن سلاّمٍ " فإنّه أشبه بالاصطلاح ، ويراد به ما يكون عند أحد الرّواة من شعر معروف لشاعر متقدم بعينه ، فينسبه الرّاويةُ إلى شاعرٍ متقدم آخر ، وهذا خلط في نسبة الشعر ، لا أكثر ، ولا يبيحُ لأحد أن يقول في صفة هذا الشعر إنّه " موضوع" أو" مصنوع" ، وهذا الخلط لا يقدح في صحة الشعر إذا كان جاهليًا أو إسلاميًا ، وإنما يقدح في صحة نسبته ، وبين هذين فرق عظيم "(١)

تبيّن لك في جلاء أن المصنوع في كلام " ابن سلاّمٍ " هو ما لم يقله شاعر، بل افتراه مدعٍ ، فنسبه إلى غير شاعر أي الذي لم يخرج حين خرج من رحم شاعرٍ عاش الموقف الباعث على القول الشعري ، وهذا له أثرٌ عظيمٌ جدًا في اتّسام القولِ بالشّعرية التي هي من وراء التأليف والعقد بالقافية هي من معدن النّفس القائلة واحتضانِها الموقف الشعوري والفكري المتولد من تفاعلهما طلاقةُ الخيال وصنعة التصوير وسحر التغنّي التي هي دعائم القول الشعري العليّ الغنّي بالخير الوفير.

المصنوع بالمفهوم - الذي تبين لك - وإن اقترف صنعه ووضعه وافتعاله من يقول الشعر لا يستحق أن ينعت بأنّه شعر؛ لأنّه فقد المعنى الجوهري لهذه الكلمة : الشعور النفسي والفكري الصادق بالموقف الباعث على القول ، فإنّ " كلّ عمل فنّيّ نواته حدثٌ أو أحداثٌ تتفق أو تختلفُ في معانيها ،وفي أزمنة حدوثها . . .

---

(١) نمط صعبٌ ونمطٌ مخيف : محمود شاكر – ص: ٧٩-٨٠- ط : المدني - ١٤١٦

ولا يكون للحدثِ معنى عند الشاعر أو غير الشاعر من أصحاب الفنون حتّى يكون سببًا في إثارة النّفسِ ، وإقلاقها إلى الانتفاض والتأمل والاستغراق ...."[1]

وهذا هو الأساس : نفس المختلق الواضع الأشعار على غيره نفسٌ خواءٌ من المثير ، فلا يكاد المتقاذف منها مؤسّسًا عليه ، فحماد الراوية - وهو لا شك يقول الشعر -[2] حين يصنع قصيدة من عند نفسه قاصدًا نسبتها إلى جاهليّ مثلا ، لا يكون في تلك القصيدة ما به يكون القول شعرًا ؛ لأنّه يفتقر إلى صدق الشعور النفسي والفكري بالموقف الباعث على القول الحامل ذوب هذه النفس المنفعلة بالموقف . ومن ثمّ يكون قولا أجرد من الخير ، وهذا ما يجعلنا ننظر في قول" ابن سلاّمٍ " تبعًا لأستاذه " خلف الأحمر" : (لا خير فيه) لنقف على حقيقة الخير المنتفية من شعر اختلق انتسابه إلى من نسب إليه .

قد يقال : إنّ تفسير قوله : (لا خير فيه) فيما قاله "ابن سلام" من بعد: " ولا حجة في عربية ....." ؟

وهذا يُعكّرُ عليه العطفُ بـ" الواو" في : " ولا حجة ..." ؟

---

(1) السابق ص ٣٠٠-٣٠١

(2) ينسب " ابن سلام " إلى" يونس" قوله في " حماد" :" العجبُ ممن يأخذ عن حمّادٍ ،وكان يكذب ويلحنُ ويكسر " (الطّبقات ١/ ٤٩) فهذا إن صح دلّ على أنّ حمّادًا لايملك ما يمكن أن يدلس به على أهل العلم فيما يضعه على الشعراء لأنّه سيتبين عواره وشناره لمن سمع وأبصر في ما وضع واختلق ، ولهذا قال " يونس " :" العجب" لأن من أخذ منه وهو على هذا الحال كان ممن لا يليق بمثله أن يأخذ الشعر ، لافتقاره إلى أن يميز بين الصحيح والطريح .

فإن قيل : لا غضاضة ، فقد يعطف المفسّر على المفسر لما أنه ليس هو هو بل هو منه ، فبينهما تفاوت[1]

قلنا : الأقرب أن هذا من عطف الخاص على العامّ ، فقوله : (لا خير فيه) عامٌ ، ومن هذا الذي تضمّنه نفيُ الخيريّةِ نفيُ حجيته في عربية . . . إلخ

ويبقى النظر في القول بأن المصنوع المفتعل الموضوع لا خير فيه .

ما علاقة صحة الانتساب بخيرية الشعر ؟

لعلّ مرد هذا إلى منزل الشعر في العرب ، هو كما لا يخفى في المنزل العَلِيّ ، وقد ترادفت الأقوال والأنباء بذلك

يتصدر هذا مقالة الفاروق " عمر بن الخطاب " :

" كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه "[2]

وإذا ما كان الشعر علم العرب الذي ليس لهم من قبل الإسلام علم أصح منه ، فلا يوثق بعلم لا يصح انتسابه وسنده وروايته ، فما آفة الأخبار إلا رواتها ، فإذا ما تيقن المتلقّي من انتساب ما يتلقى إلى مبدعه علم أنّ الآتيه إنّما هو خارج من رحم شاعرٍ له من المنزل في قومه ما للفارس ،من أنّ الفارس عندهم صانع مجدٍ مؤثّل ، والشاعرُ الفحلُ مسجّلٌ ذلك المجدَ حاملُه إلى أفئدة الأجيال المتناسِلة ، فيبصر الأحفادُ حركة أجدادِهم إلى المجد ، فيهتفُ كلُّ

---

(١) راجع مقالة المفسرين في قول الله تعالى (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً) (الأحزاب:٦٠) فإنّ منهم من ذهب إلى أنّ " الذين في قولهم مرض " هم المنافقون .- ينظر : روح المعني للألوسي ج٢٢ص٩٠-٩١ ، وفتح القدير للشوكاني ج ٤ص٣٠٥

(٢) طبقات فحول الشعراء :ج ١ ص ٢٤

نسيبٍ حسيبٍ : إنّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإنّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ مُقْتَدُونَ

الشعر عندهم كما يقول " ابن سلام " ... ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون ...... "(1)

هو ديوان مجد وحصن مناقب

وأكد هذا " عبد الملك بن مروان " حين علم أنّ " الحجاجَ بن يوسف الثقفي" منع الشعراء العطايا ، فأمره أن يعيدها إليهم فإنهم " يحيون مكارم الأخلاق ويَحُضُّون على البِرّ والسّخاءِ "

وهذا ما صوره " أبو تمام " في مختتم مدحته " أحمد بن أبي دؤاد " بقوله :

ولولا خلالٌ سنّها الشعرُ ما دَرَى
بُغاة النّدى من أين تؤتى المكارم (2)

ومما يُنسب إلى أمّ المؤمنين الصديقة " عائشة " -رَضِيَ اللهُ عَنْها - قولها "

تَرَوَّوا شعرَ " حُجَيَّةَ بن المُضَرِّبِ " فإنّه يعين على البرّ (3)

---

(1) السابق

(2) القصيدة رقم ١٣٦ الديوان ٣/١٧٦-١٨٣)

(3) حجية بن المضرب الكندي شاعر جاهليّ، ومن شعره ما قله يخاطب زوجه المعاتبة له على ما جاد به من أبل على أبناء أخيه " معدان " اليتامى، قوله :

لجَجْنا ، ولجّتْ هذه في التّغضُّبِ ولطّ الحجابِ دُوننا و التّنقُّبِ
تلومُ على مالٍ شفَاني مكانُه* إليكِ ، فلومِي ما بدَا لكِ واغضبيّ
رأيت اليتامى لاتسدّ فقورهم هـدايا لهم في كلّ قعبٍ مشَعَّبِ
فقلت لعبدينا : أريحا عليهـم سأجعـلُ بيتي مثـلَ آخر مُعزب
بنِيّ أحقُّ أن ينالوا سَغصابةً * وأن يشربوا رَنَقا لدَى كلّ مشرب .

والقصيدة في " الحماسة " لأبي تمام .

فليس الشعر عندهم كالشعر عند غيرهم هو عند العرب ديوان جامعٌ خصالَ الفن ورسالته وخصالَ العلم ورسالته :
مزجوا علمهم بفنهم فكان في هذا حفظ علمهم وإغراء نفوسهم بالإقبال عليه وحفظه وروايته فهي ترويه تلذذا بفنه وفي الوقت نفسه تحمل العلم الذي فيه وهو علم مذكر بالمجد مغر بإنمائه والحفاظ على أصوله وفروعه وثماره .
وشعر كهذا شأنه جدير بأن يكون النظر إلى نسبه والقلب الذي احتضنه واللسان الذي جرى عليه أصلا مهما يتعلق به خير كثير فالمختلق المصنوع الموضوع المفتعل لا يكون مقترفُ اختلاقِه حين اقترف قد امتلأت نفسه بالموقف الشعوري والفكري الذي يبعث على التغنّي الذي هو أنغام النفس في تأججها تفيض على اللسان ، فتتلقفها الآذان وتهتز لها النفوس والقلوب المتلقية الواعية .
المختلق المصنوع الموضوع المفتعلق خواء من كلّ ذلك ، لأنه متقاذف من نفس خواء

▶ وقد تمثلت بها أم المؤمنين " عائشة" لمّا قتل أخوها محمد بن أبي بكر - رَضيَ اللهُ عَنهُم - فأرسلت إلى أخيها " عبد الرحمن " - رَضيَ اللهُ عَنْه - فجاء بأبناء " محمد" من مصر ، فضمتهم إليها وحنت عليهم حتى شبّوا ، واعتذرت إلى أخيها من استئثارها برعايتهم دونه ، ثُم دفعتهم إليه ورغبت إليه أن يكون لهم كما كان " حجيّة بن المضرب لأبناء أخيه معدان ، وأنشدته هذه القصيدة ، وقد كانت - رَضيَ اللهُ عَنها - أروى نساء النبي - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ - للشعر .
وفي العمدة لابن رشيق أنها كانت كثيرة الرواية للشعر يقال إنها كانت تروي جميع شعر لبيد.
وجاء في العقد الفريد أن " عروة بن الزبير " لمّا قيل له ما أرواك للشعر !!، قال : وما روايتي من رواية عائشة له ، ما كان ينزل بها شيءٌ إلا أنشدت فيه شعرا

من هنا تأتي أهمية التوثيق النسبي للشعر ففي هذا التوثيق طمأنينة بالغة بأنّ ما فيه من خير العلم ولذيذ الفنّ عربيّ قُحّ، وهذه الطمأنينة هي الحافز على أن يفعل الشعر في النفس العربية فعله الماجد.

أيمكن أنْ نقول : إنّ لنا أنْ نستخلص من هذا موقف " ابن سلام" من قضية علاقة الشعر بصاحبه ، وأن ملاحظة صحة الانتساب والعرفان بالقلب الذي خرج منه الشعر واللسان الذي جرى عليه لهو المهم الذي لا يحسن بناقد وعالم أن يتغافلَ عنه أو يتهاونَ فيه فوق أن يدعوَ إلى تعمُّد تجاهله ، كما يذهب إليه بعض المُحَدَثِين المُحْدثِين في زماننا من فريضة إماتة النَّظر إلى المؤلف وقهر سلطان تذكره وملاحظته إلى النّص ، وأنه ليس إلا النّصّ ؟

يقول " ابو فهر" :

« والاستهانَةُ بأمرِ نِسبَةِ الشّعرِ إلَى صَاحبِهِ مُضِرّ(1)؛ لأنّه يدخِلُ الخَلْطَ والفسَادَ فِي تمييزِ شاعِرٍ مِنْ شَاعِرٍ ، وفِي الكشْفِ عنْ خصَائص بِنْيَةِ كلّ شاعِرفِي شعْرِهِ

ولتحقيقِ النِّسبةِ خطرٌ عظيمٌ فِي أمرِ الشعراءِ المقلدين، وفِي أمر الشعراء أصحابِ المفرداتِ من القصائدِ ؛ لأنّ " عبيد الشعر" لهم منهاج غير منهاج الذينَ لم يقولوا الشعر إلاّ فِي مواقف بعينها ، أثارتهم ، فانطلقوا يتغنّون به ، وغير مناهج المقلّين أصحاب القصائد ذوات العدد ."(2)

---

(1) قوله :(مضرّ) بالتنكير والمبتدأ مؤنث (الاستهانة) لأنّه نعت لخبر محذوف ، والتقدير : والاستهانة بأمر نسبة الشعر إلى صاحبه أمرٌ مضرٌ ." واصطفى التنكير دِلالة على قوة الإضرار وفحولته (شيطانه أنثى وشيطاني ذكر)

(2) نمط صعب ونمط مخيف : محمود شاكر : ص / ٤٦

وكأنّي بابن سلام إنْ صحّ ما ذهبت إلى فهمه عنه – ولا أخاله إلا صحيحًا – يرى أنّ أوّلَ سمات الشعر عنده أن يكون شعر النفس القائلة : يصورها ، ويقوم ببيان منهاجها في البيان عن حالها فكرا وشعورا، فإذا ما قرأته فقد قرأت نفس قائله ، وإذا ما تفرّسته فأنت لا تتفرّس أحرفا وكلمات فارغة من صاحبها بل أنتَ تتفرّس النّفس التي عاشت بملْءِ أقطارها وجماع إحساسها ذلك الموقف ، فأُتْرِعَتْ ، وفاضتْ رقائق شعُورِها ودقائقُ أفكارها ، فخرج كلّ ذلك منه شعرًا .

وأهلُ العِلمِ بالشّعر كانوا بفراستهم البيانيّة يعرفون أنساب القول الشعرِيّ كمثل ما يعرف أهل الفراسة والقيافة أنساب البشر من معالم أجسادهم .

وأنت تجد " ابنَ سلاّمٍ " يشير إلى شيءٍ من ذلك بقوله : " ... وليسَ يُشْكِلُ عَلَى أهْلِ العِلْمِ زِيادَةُ الرّواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولّدون .." (1)

ألا ترى أن " ذا الرمة " وهو حسن العلم بالشعر: يرويه ويقوله قد استطاع أن يلمح " جريرا " قائما يتغنى في الأبيات التي هجاه بها " هشام المرئي " في خبر يرويه " ابن سلام":

" كان " ذو الرّمة " مستعليًا هشامًا ، حتّى لقي جريرٌ هشامًا ، فقال : غلبك العبد! – يعني ذا الرمّة –

قال : فما أصنع ، يا أبا حَرْزَة، وأنا راجزٌ، وهو يقصّد ، والرجز لا يقوم للقصيد في الهجاء ؟ فلو رفدتني .(2)

(1) طبقات فحول الشعراء ج١ص ٤٦

(2) الاسترفاد من المصطلحات النقدية التي ترد في باب السرقة والاحتذاء ويراد به طلب شاعر من شاعر آخر أن يعينه بأبيات يهبها له. ←

فقال جرير –لتهمته " ذا الرمة " وميله إلى " الفرزدق " – قل له :

غَضِبْتَ لِرَهْطٍ مِنْ عَدِيٍّ تَشَمَّسُوا * وَفِي أيِّ يومٍ لَمْ تَشَمَّسْ رِجَالُهَا

وَفِيمَ عَدِيٌّ عبدُ تَيْمٍ مِنَ العُلا * وأيَّامُنَا اللاتي يُعَدُّ فَعَالُهَا

وَضَبَّةُ عَمِّي ، يابن جِلٍّ فلا تَرُمْ * مَسَاعِيَ قَوْمٍ لَيْسَ مِنْكَ سِجَالُهَا

يُماشي عَدِيًّا لؤْمُهَا ، لا تُجِنُّه * مِنَ النَّاسِ ما مَاشَتْ عَدِيًّا ظِلالُهَا

فَقُلْ لِعَدِيٍّ تَسْتَعِنْ بِنِسَائِهَا * عَلَيَّ ، فقدْ أعْيَا عَدِيًّا رِجَالُهَا

أذَا الرُّمِّ ، قَدْ قَلَّدتَ قَوْمَكَ رُمَّةً * بطِيئًا بِأيْدِي المُطْلِقِينَ انْحِلالُهَا

لمّا بلغت الأبيات ذا الرُّمّة قال : والله ما هذا بكلام هشامٍ ، ولكنّه " ابن الأتان "(1) يقصد جريرًا

فلمّا كان بعد ذلك لقي " ذو الرّمة " جريرًا " فعاتبه على مناصرته " هشامًا عليه قائلا : " تعصّبت على خالك للمريّ "

فقال جرير : حيث فعلت ماذا ؟

قال : حين تقول للمرئيّ كذا وكذا .

فقال جرير : لأنك ألهاك البكاء في دار " ميّة " حتّى استقبحتهُ محارمك ...

قال " ذو الرمّة " : لا ، ولكنّك اتهمتني بالميل إلى " الفرزدق " عليك

قال : كذلك هو .

قال : فو الله ما فعلت ، وحلف له بما يرضيه ...

➔ يقول " ابن رشيق ": " والشاعر يستوهب البيت والبيتين والثلاثة وأكثر من ذلك إذا كانت شبيهة بطريقته ، ولا يعدُّ ذلك عيبًا ؛لأنّه يقدر على عمل مثلها ولا يجوز ذلك إلا للحاذق المبرز " (العمدة : ٢ /٢٧٦-٢٨٧)

(1) طبقات فحول الشعراء :ج٢ ص ٥٥٨

قال جرير : فأنشدني ما هجوت به المرئيّ ، فأنشده ، فأطال جدًا ، فقال له جرير: ما صنعت شيئًا ، أ فأرْفِدُك ؟

قال نعم .

قال : قل :

يَعُدُّ النـاسبون بنِي تميمٍ ❖ بيوتَ المَجْـــدِ أربَعةً كِبارًا

يَعُدُّون الرِّبـــاب وآل تيْمٍ ❖ وسَعْدًا ، ثُمّ حنــظلةَ الخيارَا

ويذْهبُ بينها " المرئِي" لَغْوًا ❖ كما أُلغِيت فِي الدّية الحوارَا

وهي التي ضمها "ذو الرمة" في قصيدته التي هجا بها "هشامًا المرَئِي" فلمًا مرّ" ذو الرُمّة" على " الفرزدق " قال له "الفرزدق" :

أنشدني أحدث ما قلتَ فِي المرئي . فأنشده هذه الأبيات ، فأطرق " الفرزدق" ساعة ، ثُمّ قال : أعدْ ، فقال: " كذبت ، وأيم الله ! ما هذا لك ، ولقد قالها من هو أشد لحيين منك ، ما هذا إلا شعر ابن الأتان.

ولَمّا سمعها " المرئي" جعل يلطم رأسه ، ويصرخ ، ويدعو بويله ، ويقول قتلني " جرير" قتله الله ، هذا والله شعره الذي لو نقطت منه نقطة في البحر لكدرته ، قتلني وفضحني ، فلمًا استعلى " ذو الرمّة" على " هشام" أتى " هشام" وقومُه " جريرًا" ، فقال : يا أبا حرزة : عادتك الحُسْنَى.

فقال: هيهات ، ظلمتُ أخوالي ، قد أتاني " ذو الرمّة " فاعتذر إليّ ، وحلف ، فلستُ أعين عليهم "(1)

فانظر كيف أنّ كلا من " ذا الرمة " و" الفرزدق " و" هشاما " قد أبصر" جريرًا" قائمًا فيما أردف به غيره .

---

(1) الأغاني :16 ص112-113

كذلك يكشف أهل العلم بالشعر سمات قائله النفسية والعقلية والخلقية
وقراءة شخصية الشاعر وبيئته وزمانه لا تجده البتة في شعر مصنوع مفتعل موضوع ؛ لأنَّه لن يكون شعرا مترجما عن نفس من نسب إليه وحمل عليه .
ما الشعر إلا صورة النفس مغنّاةً .
وهذا لا أحسب أن أحدا من أهل العلم يرغب عن أن يقولها أو لا يرتضي قولها الشعر صورة النفس منغومة مُرَنَّمَة على إيقاع حركاتها وسكناتها. . (1)

◆◆◆

ومن ضروب الخير المنتفي من القول المصنوع المفتعل الموضوع والمحقق فيما كان وثيق الانتساب إلى قائله أمور :

١ = أن يكون فيه حجة في عربية :

ليست العربية التي يحتج لها بالشعر هي عربية الإعرابِ النحويَّ في مفهومه الخاصَّ القائم للوفاء بحقه جمهرة النحاة ، فإنَّ ذلك مما يمكن أن يجده " النحاة " كثيرًا وفيرًا فيما جاء من نثير القول

---

(1) تجد أبا فهر قد قرأ حياة " أبي الطيب المتنبي" في شعره ، رآه قائمًا فيه رأي العين ، فكان سفره (المتنبي) انطلاقًا ممَّا انتهى إليه النظر عنده من أن البيان عامة والشعر خاصة :" إنما هو إبانة عمَّا تموج به النفوس ،وتنبضُ به العقول ، ففي نظم كلّ كلامٍ وفي ألفاظه ،ولا بدَّ أثرٌ ظاهر أو سَمْتٌ خفِيٌّ من نفس قائله ،وما تنطوي عليه من دفين العواطف والنوازع والأهواء من خيرٍ وشرٍّ أو صدقٍ وكذبٍ ،ومن عقل قائله وما يكمنُ فيه من جنين الفكر (أي مستوره) من نظر دقيق ومعانٍ جليّةٍ أو خفيّةٍ وبراعة صادقةٍ ومهارة مموهةٍ ومقاصدَ مرضيّةٍ أو مستكرهةٍ "(رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : مصدر بها كتاب المتنبي - ص: ١٤)

العربيّ ولو لم يكن في بُعْدِه الفني ، ولا يفتقر فيه إلى الكلمة الشاعرة ، فالشاهد النحوي نثيرًا في منزلته نظيمًا .

الأمرُ من وراء الحجة النحوية .

لعله يتبيَن لنا شيءٌ من هذا حين ننظر في نسق الكتاب : " كتاب طبقات الشعراء " نجد أنّ " ابن سلاّمٍ " قد استفتح بالفقرة (الرابعة عشرة) قولا في العربية والنحو وما كان من شأن أهل البصرة في هذا ، وفي نشأة النحو وتدوينه ، وما كان من شأن " عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي " ، وفرق ما بينه و" أبي عمرو بن العلاء" الذي روى " ابن سلاّمٍ " عنه في (الفقرة الثالثة عشرة)أنّه قال : (ما لسان حمير ، وأقاصِي اليمن اليوم بلسانِنَا ، ولا عربيّتهم بعربيتنا" ، وروى عنه في (الفقرة الثالثة والثلاثين) أنه قال :

" ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلاّ أقلّه ، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم عِلمٌ وشعرٌ كثيرٌ"([1])

وهو الذي قال فيه " يونس " : " لو كان أحدٌ ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيءٍ واحد كان ينبغي لقول " أبي عمرو بن العلاء " في العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك "([2])

([1]) أزعمُ أنَّ الذي بقي من شعر العرب قبل الإسلام هو أجوده وأعلاه ، حتّى يكونَ في جودتِه وعلوّه آياتٍ بيناتٍ على عظيم وجليل علوّ القرآن الكريم ، أبقى لهم الله - عزَّ وَجلَّ - أجودَ ما جاء عن فحول شعرائهم حتّى إذا ما نظروا أيقنوا أنَّ الفرق لا يقايس ، ولو أبقي لهم أدنَى ما جاء عَن فحولهم لقالوا : ضاع ما سما ، وشرف من قول فحولنا ، ولو بقي لقارن ما جاء به محمد - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحْبِه وسلمَ - أو قاربه ، فأبطل المُدّعى بأنْ أبقى أجود ما جادت به قرائح فحول شعراء الجاهليّة .

([2]) الطبقات فحول الشعراء:ج ١ ص١٦

ولهذا كان " ابن أبي إسحاق أشدّ تحريًا للقياس ، وكان أبو عمرو أوسع علمًا بكلام العرب ولغاتها وغريبها "([1])

ومن ثِمّ تصدّى " ابن أبي إسحاق " لصنيع " الفرزدق " وروى " ابن سلاّمٍ " شيئًا من ذلك السجال ، وكأنّي به يشير إلى ما في الشعر من حجة في عربية يجهلها أو ينكرها مثل " ابن أبي إسحاق " ويعلمها " أبو عمرو " و" الفرزدق "([2])

وفي مثل صنيع " الفرزدق " فتح لمسالك الإبانة ، وإحياء لما كان من العرب ، فَغَام على غير قليل من النّاظرين شعره، وما أبصره إلاّ نزيرٌ من أهل العلم بالشعر والعربية ، فإنّ لسان العرب كما قال " الإمام الشافعيّ " في " الرسالة " : « أوسع الألسنةِ مذهبًا ،وأكثرها ألفاظًا ،ولا نعلمه يحيطُ بجميعِ علمه إنسانٌ غير نبيّ ،

([1]) السابق: ج١ ص ١٤

([2]) ممّا يصور لك شيئًا من دقيق فقه الفرزدق ،وبعد ابن ابي إسحاق عن تتناول مثل تلك الدقائق ماروواه "الأصمعي" من أنّ الفرزدق حضر مجلس "ابن أبي إسحق ، فقال له ابن ابي إسحق: كيف تنشد هذا البيت :

وعينان قال الله كونا فكانتا * فعولان بالألباب ما تفعلُ الخمر

فقال الفرزدق كذا أنشدُ ، فقال ابن أبي إسحق: ما كان عليك لو قلت:" فعولين" ؟
فقال الفرزدق: لو شئتَ أن تسبّح لسبّحت ،ونهضَ ، فلم يعرف أحدٌ في المجلس ما أراد بقوله : لو شئت أن تسبح لسبحت .
أي لو نصب لأخبر أنّ الله خلقهما وأمرهما ان تفعلا ذلك ،وإنما اراد أنهما تفعلان بالألباب ما تفعل الخمر
قال أبو الفتح ابن جني : كان هنا تامة غير محتاجة إلى الخبر ،فكأنّه قال: وعينان قال الله : احدثا فحدثتا ، أو اخرجا إلى الوجود فخرجتا (الخصائص ج٣ ص ٣٠٥- تحقيق النجار
وعلى هذا يكون قوله (فعولان) خبرا لمبتدا محذوف أي هما فعولان . وفي الإخبار عنهما أولا بقوله (قال الله كونا فكانتا) إيماء إلى جليل قدرهما ،وأنهما من الغرائب التي لا نظير لها، فهما ليسا على سنن ما تكون عليه الأعين ، بل لغرابتهما أفردهما الله بقوله كونا ، ومن ثمّ هما فعولان بالألباب ما تفعل الخمر .

ولكنه لا يذهب منه شيءٌ على عامتها (أيْ جميعا ، وليس المراد بالعامّة الدّهماء) حتّى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه . »(١)

فانظر قوله :« أوسع مذهبًا » ثُمّ قوله :« أكثر ألفاظًا» تراه غير قاصر غناها على مفرداتها بل هو جاعلٌ مذاهب الإبانة ذات اتساع لا تضيق بما يحاوله الشعراء ، ولا يملأُها مختارات علماء البصرة أو الكوفة وكافة النحاة والبلاغيين والنقاد وما شاكلهم أجمعين ، هي أوسع مذهبا من ذلك كلّه لا يحيط بتلك المذاهب إلا نبيّ علّمه ربّه َ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ما لم يكن يعلم بنفسه وقومه وكل جنسه .

الفرزدق لم يكن فيما عدل عمّا شاع في لسان الشعراء من نهج البناء بالغافل أو المضطر بل كانِ ومن بعده " أبو تمام" يحاولان بصنيعيهما وجها جليلا من العربية .

وكأنّى بالفرزدق حين رمى بها في وجه النحاة :« علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا .» إنّما يَهْدِى إلى أنّ الشّاعرَ عليه أن يضرب فى مجاهل البيان ، يفتتح مغاليقها ، ويستخرج مكنوناتها ، وعلينا قرّاءَ الشّعرِ أنْ نتأول :

= أن نرجع إلى أصول هذا الذي جاء به الشاعر من الغيب السحيق الذي أسدلت أستار الألفة بيننا وبينه .

= وأن نحسن البصر بحركة المعنى في الشعر إلى مآله الذي يؤول إليه وينتهي

كلمة :«وعليكم أن تتأولوا » كلمة عليّة ماجدة. ففى العربية مساحات بِكْرٌ لمّا تطأها قدمٌ ، وعلى الشعراءِ أن يسافروا إليها

---

(١) الرسالة للشافعي _ تحقيق : أحمد شاكر – ص: ٤٢ –ط: ١٣٩٩ – دار التراث بالقاهرة .

وعلينا نحن قراءَ الشعراء أن نكفّ عن تمزيق أعراض الشعراء الفحول حين يرتحلون إليها.

كان لـ" بشار بن برد " موقف جليل مع " سلم بن قتيبة " دهش له رجلان من علماء العربية ، حرص الإمام " عبد القاهر " على أن يسجل هذا الموقف الجليل :

« روى عن "الأصمعيّ" أنّه قال : كنت أشدو من " أبى عمرو بن العلاء " ، و" خلف الأحمر" ، وكانا يتأتيان " بشارا " فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم يقولان: يا أبا معاذ ، ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ، ويسألانه ، ويكتبان عنه متواضعين له ، حتى يأتي وقت الزوال ، ثم ينصرفان.

وأتياه يوما فقالا :

ما هذه القصيدة التي أحدثتها في "سلم بن قتيبة " ؟

قال: هي التي بلغتكم ؟

قالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب.

قال: نعم ، بلغني أنّ " سلم بن قتيبة " يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف.

قالوا: فأنشدناها ، يا أبا معاذ. فأنشدهما :

بكّرَا صاحِبَيّ قَبْلَ الهَجِير ◆ إنّ ذاكَ النّجَاحَ فِي التّبْكِير

حتى فرغ منها.

فقال له " خلف ": لو قلت يا أبا معاذ ، مكان « إن ذاك النجاح فى التبكير » : "بكرا فالنجاح فى التبكير" كان أحسن.

فقال بشار: إنّما بنيتها أعرابية وحشية. فقلت: إن ذاك النجاح فى التبكير ، كما يقول الأعراب البدويون. ولو قلت: "بكرا فالنجاح"

كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذاك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة . !!!

قال : فقام خلف فقبل بين عينيه» (١)

إذا نظرت فى هذا المشهد وجدت " بشارا " قد بلغه أن " سلم بن قتيبة " يتباصر بالغريب. ما ذلك الغريب المُتَباصِر به " سلم " ؟

أغريب اللغة ؟ ولكنّ " بشارًا " الشاعر أراد أن يعلم " سلما " ضربا آخر من الغريب هو أليق بالشعر وأحق بأن يفتش عنه فيه :

أراد أن يعلمه أن الغريب ضربان :

غريب لغة ، وما ذاك بالذي يكون له الشعر ، بل هو مطروح في المعاجم والبوادي

وغريب صنعة وتصوير. وذلك هو الذي لا يعرفه " سلم " وأمثاله ، هو غريبٌ على مثله لم تألفه أذنه ، فقال هذه القصيدة. وهى ليست بمجمع غرائب مفردات الألفاظ كما في أراجيز " رؤية " و" العجاج " مثلا. هى ذات غرائب شعرية فى الصنعة والتصوير والبناء. (في حجة في عربية)

لتبصر قول بشار: « إنّما بنينها أعرابية وحشية » والأعرابية والوحشية ليست أعرابية مكونات لفظية إنّما أعرابية بناء ووحشة صنعة ، ولذا بيّن لـ "خلفٍ " أنّ "الفاء" في موقع (إنّ) تُحِيلُ القصيدة مولّدة ، ولا تجعل القصيدة أعرابية البناء وحشية الصنع.

ولكن (إن) في موقعها الذي لا يقر فيه "الفاء" هي التي تدخل في معنى القصيدة. معنى القصيدة عند "بشار" إذن ليس ذلك المعنى

---

(١) دلائل الإعجاز - ت: شاكر : ص٢٧٢-٢٧٣

العقليّ الساذج غير المصور معناها هو من بنائها وصنعتها وتركيبها وتصويرها.
معنى هذه القصيدة عنده من بنائها الأعرابي الوحشيّ ، و" الفاء " هنا لا تأنس بهذا المعنى المتولد في البناء الأعرابي الموحش.
أرأيت إلى هذا البناء الموحش الذي افتقدته الألفة بأبنية المولدين ؟
أدهش هذا العدول عما ألف الآخرون من البناء "خلفا" فقام وقبل بين عيني "بشّارٍ".

وقد كان أبو تمام – أيضًا – من أكثر الشعراء جرأة على أن يصدم السامع بما لم يألف مما يحاول به وجها من وجوه الإبداع في اكتشاف طاقات العربية الشاعرة ، مثلما فجّر " القُرْآن الكَريم " طاقات العربية المبينة الهادية المُتَسنِّمَة بك معارج القبول.
وكأنى بـ"أبى تمام" وقد كان عالما قد سكنت فيه كُلمات قالها "سيبويه" شيخ علماء نحو العربية فى الإبانة ومنهاجها فى الدلالة على المقاصد القريبة والبعيدة.
يفتتح "سيبويه" بابًا في كتابه يرقم على أعلاه هذه العبارة " باب ما يحتمل الشعر" قد تنظرها عين نحويٍّ من حفدة أصحاب المختصرات والمطوّلات، فلا يقلّبُ ما فيها وهى الكلمة الماجدة.(1)

هذه الكلمة فى أعلى الباب تهدى فيما تهدى إليه أنّ الشعر يحمل من تكاليف الإقدام على سلوك فجاج من أرض البيان العربيّ لم تطرق من قبل يحتمل الشعر السعيَ إليها بل والسعيَ فيها. فالشّعر يحتمل تلك التكاليف ويقوم لها مصابِرًا ويقومُ بها مُوفّيًا.

---

(1) الكتاب – تحقيق : هارون ج١ ص٨

و"سيبويه" لا يجعل هذا من باب التوسعة على الشاعر من عجز يُلِمُّ به ، بل هو من ضرورة فرضتها عليه فريضة الغزو إلى مضايقَ لم تقترب منها الألسنة ، وفريضة اقتحام المجاهل التي لم تعمر سهولها ودروبها مقالات القوم.

وإذا كان "سيبويه" قد رقم هذه العبارة في أعلى الباب : (باب ما يحتمل الشعر) فإنَّه قد افتتح كلامه فيه بعبارة واختتمها بأخرى كل منهما ماجدة:

جعل في مفتتحه :

(اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام)

وجعل في خاتمته قوله :

(وليس شئ يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها)

افتتاحه بقوله (اعلم) دال على أن ما هو آتٍ من بعدُ جِدٌّ عظيمٍ وجليلٍ ، وقد كان من عادة أسلافنا إثارة القارئ وهدايته إلى أن ما هو ذاكره له لا يليق به إلا أن يجعله من معلومه الراسخ ، ولذا جعله مطلوبه بهذا الأمر الإرشادي (اعلم) وكان بملكه ألا يُصدِّر هذا الأمر كلامه وهو العليم بأن النفس الإنسانية نافرة من أن تكون المأمورة ولو بما هو ذو نفع عظيم لها، ولكنَّه يتجاوزُ هذا الآخذ بخناق تلك النفس الإنسانية لا يسترضيه ولا يداريه بل يواجهه بقوله (اعلم) وقد كان "عبد القاهر" أيضا كثير القذف بهذه الكلمة في صدر ما هو عنده جدّ جليل يُبنى عليه غيره.

المهم أن "سيبويه" افتتح بهذه الحقيقة البيانية المجيدة (انه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام) وكأنَّه يؤذِّن فينا – نحن قراء شعر العربية – أن للشعر نظامًا في بناء الكلام ليس لغيره: له نحوٌ ومنهاجٌ

يخصُّه ، لا يكونُ لغيرِه ، ليس هو نحوًا مسجونًا في إدراك العلاقات الإعرابية الخاوية من ملاحظة معاني الشعر.

هو نحو منبثق من وعى المعنى الشعري المعتلج في صدر الشاعر المائج فى ذاته يحاول أن ينطلق ، وليس المعنى المتلمس في علامات الإعراب وعلاقات الإسناد والتضايف والتقييد المألوفة للقلوب المخلدة إلى سكون الألفة المفترسة بهجة المتعة المُدهشة بالشّعر السّاحر.

وهذا الجواز الذي تراه في عبارة سيبويه المفتاح « <u>إنه يجوز فى الشعر ما لا يجوز في الكلام</u> » ليس هو الجواز الفقهيّ المقابل للمنع ، بل هو الاجتياز والعبور والاقتحام.

الشعر بما له من خصائص وَهْبِيّة وكَسْبِيّة قائمة في الشّاعر تجعله قديرا على أن يقتحم وأن يَجوز وأن يعبر إلى ما يعجز غيره في ضروب البيانات الأخرى أن يجوزه وأن يعبره.

فإذا قيل هذا جائز في الشعر فإنّ معناه العليّ أن صاحبَ الشعر مقتدر على أن يجوز إليه ،وأن يعبر ،وأن يقتحم بما يفعم قلبه ،ويعتلج في صدره من المعاني الشعرية التي تقذف به في وجه المألوف يحاول أن يفترع وجها من وجوه البيان بالعربية المدهشة باقتدارها على حمل كلمة الله - عزّ وجلّ - إلى عباده في خطابه القرآنيّ المجيد.

وتأتى العبارة الخاتمة :

« <u>وليس شئ يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها</u> »

وقد بناها بناء محكما بالتخصيص (ليس ... إلا) وكأنه ينتزع من قلوبنا مظنة أنّ الشاعر حين يضطر إلى اقتحام سبيل مَخُوفٍ من سبل الإبانة في العربية إنّما يقومُ به غير رامٍ إلى تحقيق فتح مبين

بل هو في كلّ هذا يحاول وجهًا من وجوه الإبانة التي غفل عنها ذوو البيان من غير الشعراء ، فيكشف لهم بهذا الاقتحام الستار عن ذلك الوجه ، فيشرق نوره للأبصار.

وعلينا أن نتأوّل صنعه أن نبحث عن الوجه الذي يحاول اكتشافه لا أن نسارع إلى اتهامه حتى نزيح عن أنفسنا ألم الإحساس بالعجز عن أن نشعر بما يشعر به ، وأن نسافر معه في تلك المجاهل المخوفة. فالذين يسارعون إلى معابة الفحول من الشعراء إنّما يحاولون ستر عجزهم ودفع الإحساس بألم العجز الآخذ بخناقهم ، فيلقون التّبِعة عليهم ؛ لتسكن نفوسهم اللوّامة.

كأنّي بسيبويهِ ينادينا أن نقرأ نحو الشعر على غير ما نقرأ به غيره من سائر الكَلِمَ الإنسانِ. وألا يكون موقفك قارئا جملة شعرية نسجها فحلٌ فى قصيدته هو موقفك من جملة من الكَلِمِ قذف بها لسان ما فريدة عن سياق بيانى.

أنّى لنا أن نقف مما تناسج من الإبريسم فى ديباج ، كما يقول عبد القاهر موقفنا من خيط مفرد مُلْقَى ؟

أعَدْلٌ يُرْتَضَى أمْ جَوْرٌ يُقْتَرَفُ ؟

فمن حق شعر العربية أن يكون له اختصاص بمنهاج يتواءم معه فى قراءة نحوه فإن الشاعر ليس من هَمِّه استرضاءُ القارئ بل هو- إن كان فحلا - أقرب إلى استنفاره وإلى إقامته أمام نفسه السّاكنة إلى التقاليد والأعراف الموروثة ، فيستحيى من العجز ، ويستشرف العَلِيّاتِ من المنازل.

ولهذا لما أراد "أبو سعيد الضرير" أن يدمغ "أبا تمام" لمّا سمع منه ما لم يألف فقال له "أبو سعيد":

« لم تقول ما لا يفهم » ؟

قذفه بها " أبو تمام " :

« ولم لا تفهم ما يقال ؟ » فدمغه .

وكأنّي بأبي تمامٍ لما قال " أبو سعيد " قولته الناكرة فهمها " أبو تمامٍ " على هذا النحو: لم لا تقول ما يُؤْلَفُ ويُعْرَف . فجعل توحُدا بين الإلف والفهم وكأنّ النّاسَ لا يفهمون إلا ما يألفون ، فكان توحد بينهما: الإلفُ والفهمُ حضورا وغيبة فكانت الدامغة : « ولم لا تفهم ما يقال ؟ »

أعلَمَهُ أنّ الشاعر لا يقول ما يألف الآخر ، وإلاّ لما كان لنا بالشاعر حاجة ، فكل الناس غيره يقولون مألوفا معروفا ، فما قيمته فيهم ، وبأيّ شيءٍ يكونُ أميرَ بيانٍ ؟

وكأنّي بأبي تمامٍ وكلّ شاعر فحل أراد أن يضئ لنا عبارة سيبويه : « وليس شئ يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها » وهى الساكنة فيه ، المؤرّقة ليله المهيّجة نهاره ولم يكن " سيبويه " فيما ذهب إليه مبدعا ، فقد ارتشفه من كأس الخليل بن أحمد: :

« الشعراء أمراء الكلام يصرّفونه أنّى شاءوا ، وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم »(1)

وهى مقالة فقيهٍ يعلم أنّ آفاق العربية فسيحة وسيعة لا تحيط بها مذاهب النحاة

ويقول " ابن جني " (ت ٣٩٢هـ)

« فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها (أي عند الجمهرة من النحاة) وانخراق الأصول بها ، فاعلم أنّ

---

(1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني :- تحقيق : الحبيب الخوجة ص١٤٣د: دار الغرب الإسلامي – بيروت .

ذلك على ما جشّمه منه ، وإنْ دلّ من وجه على جوره وتعسفه ، فإنّه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمّطه ، وليس بقاطعِ دليلٍ على ضعف لغته ولا قصوره عن اختياره والوجه الناطق بفصاحته ، بل مثله في ذلك عندي مثل مُجْرِي الجموح بلا لجام ، ووارد الحرب الضروس حاسرا من غير احتشام.

فهو وإن كان مَلُومًا في عنفه وتهالكه ، فإنّه مشهودٌ له بشجاعته وفيض منته.

ألا تراه لا يجهل أن لو تكفّر في سلاحه أو أعتصم بلجام جواده ، لكان أقرب إلى النجاة ، وأبعد عن الملحاة ، لكنّه جشم ما جشمه على علمه بما يعقب اقتحام مثله إدلالاً بقوّةِ طبعه ، ودلالة على شهامة نفسه.

ومثله سواء ما يحكى عن بعض الأجواد أنّه قال:

"أيرى البخلاء أنّنا لا نجد بأموالنا ما يجدون بأموالهم ، لكنّا نرى أنّ في الشفاء بإنفاقها عوضا من حفظها بإمساكها ..."

فاعرف بما ذكرناه حال ما يرد في معناه، وأنّ الشاعر إذا أورد منه شيئا فكأنّه لأنسه بعلم غرضه وسفور مراده لم يرتكب صعبا ولا جشم إلا أمما وافق بذلك قابلا له ، أو صادف غير آنس به إلا أنه هو قد استرسل واثقا ، وبنى الأمر على أنه ليس متلبسا ... » (١)

وكلّ هذا أنت واجده فيما صحت نسبته إلى قائله ، وكان خارجًا من رحم شاعر قد عاش الذي يقول ، فهو يصور لك ما قام في نفسه منها ، ويعرب لك بما تغنّى عما هو مكنون في نفسه العربية الماجدة ،

(١) الخصائص لابن جني – تحقيق النجار ج ٢ ص ٣٩٤

ولن يضيرنا ضررًا بليغًا إذا ما كان كذلك ،ولكن أخطئت نسبته إلى شاعرٍآخر كأنْ ننسب قصيدة خرجت من رحم "زهير" إلى " الأعشى " ، فما يلحقك من ضرر لا يمس المعاني التي ذكرتها لك

❖❖❖

٢ = أن يكون فيه أدبٌ يستفاد

وإذا ما كان الشعر صورة النفس المحتج بعربية بيانها على عربية جوهرها وهمّها من أنّ البيان مرآتها ، فإنّ ما لا يكون حجة في عربيتها بيانا وجوهرا لا يكون فيه أدب يستفاد .

الأدب المستفاد هنا أدبُ النفوس المُصَوِّرُهُ اللسانُ الشّاعرُ ، فهذا الشعر هو علم العرب،وهو ديوانها،منه تستقى أدب النفس العربية بما يحاجزها عن أن تتردى في مهاوي المَعَابَةِ،وبما يغريها بالاستشراف إلى تسنّم أعلام المجد الخالد .

فمن الخير المترادف من الشعر أن يكون الحجة البالغة لما تقوم عليه الشخصية العربية في لسانها وحركتها في الحياة ،وأنتَ لا تجد أمّة كالأمة العربية قد هُديت إلى أن تجعل الدلائل الهادية إلى سمات شخصيتها والكاشفة عما يميزها عن غيرها من الأمم فيما فَصَلَ به الله – عزّ وجلّ – الإنسان عن سائر الكائنات: نعمة البيان الكاشف عما يعتلج في النفس من دقيق الفكر ورقيق الشعور، فجعلت تلك الدلائل في شعرها وغنائها ، فكانت بهذا أمّة متحضرة في فكرها وشعورها ،وإن سكنت الخيام والتقمت الشيح والقيصوم ،ولم تنل من مدنية العمران قليلا .

ولهذا كان فريضة أن تصح نسبة الشعر إلى قائله كيما لا يكون زنيما دعيًا ملصقا ، فمن لم يكن من ولائد الأصلاب لا يكاد يوثق به ، ولا يستفاد منه في دنيا الناس، وكذلك ما كان من ولائد النفوس

: الشعر، فصحة نسب القصيد عندنا – نحن العرب – من صحة نسب الوليد .

وإذا ماكان غيرنا في الشاطئ الغربيّ لا يُلقِي بالا لصحة نسب ولا ئدهم ، ولا يقيمون للأنساب وزنًا ، فسواء عندهم أن تأتي المرأة بوليد من زوجها أو خدنها ، فإنّ الأمر عندنا نحن المسلمين عامة والعرب خاصة ليس كذلك ،وكلّ قد اتخذ موقفه في هذا من القصائد من موقفه من الولا ئد.

ومن ثَمّ ما كان مصنوعًا مُفْتَعَلاً مَوضُوعًا لا يحمل شيئا من ذلك الأدب ؛لأنّ النفس التي تفتعل وتضع البيان وتحمله على الأغيار نفس لوثها داء الخيانة والكذب، وتلك التي تتحاشها النفس العربية في طورها المتسامي ، ولهذا تجد أعلَى سمات النبي – صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آله وصحبه وسلّمَ – والتي بها كان الثناء عليه من قومه : الصدق والأمانة ، فإنّهما قد اكتملا فيه كما لم يكتملا في أحد من قبله ولا من بعده فبهر بهما وأدهش .

ومن ثَمّ نفقه حنين الأماجد من العرب إلى الشعر فيما قبل الإسلام ومن بعده ، واتخذته غناءها تتغنى به في أسفارها ومعتركاتها في الحياة

ولولا خِلالٌ سنّها الشّعْرُ ما دَرَى

بُغاة النّدَى من أيْنَ تُؤتَى المكارِمُ

وهذا يبيّن لنا أن رسالة الشعر ليست رسالة إمتاع أجْرَد –وإن كان في الإمتاع الأجرد نفعٌ للنفس تقبل من بعده على منافعها فتيّة – بل رسالته إمتاع وتربية ،فكلّ ما لا يطهّرُ المرء من أدْرَانِ إنسانيتِه ، ويسكبُ فيه طهرَ أدميّته ،وإن كان المفعم بالمتعة ليس بالذي تقبل إليه النفس السوية ، فكيف بالنفس العربية ؟

والذين لا يرون قيمة لما حمله الشعر من تَثْقِيف النفس الممزوج ببهجة التصوير وسحر التغنّي لا يفقهون ما فطرت عليه النفس السوية ،وحسبوا أنّ ما يروق في الديار الغربية الأعجمية من ذلك هو العيار ، فما جازه أنِفُوا منه ،وأعرضوا عنه .
ما يكون البتة الذي يروق غير العربي بله المسلم بالذي يروق دائمًا العربي خاصّة والمسلم عامة ، فكلّ فنٌ أيًا كانت أداتُه من نفس الفنان أم من خارجه إذا لم يحمل في رحمه أدب نفس وطُهرها ، فما هو من الفنّ في شيءٍ البتة .على ذلك نشأنا ودرجنا ،وعلى ذلك نربي أبناءنا ونثقفهم .



٣ = أن يكون فيه معنى يستخرج :
استخراج المعنى من معادن البيان مُتَلَذَّذُ ذوي الألباب ، ففي ذلك عيار الفضل ؛ لما في الاستخراج نفسه من مصابرة لا يطيقها إلا الرجال ، وكلُّ ما كان من الأعمال لا يطيقه إلا الرجال كان عملا ماجدا سامقا ، فكيف إذا ما كان المستخرج من اللطف الذي يزيد الاستخراج شرفا على شرف ؟ فكيف إذا ما كانت آلة الاستخراج أذواقًا، وعقولاً أسست على علمٍ وعرفانٍ بشأن ما تستخرج ومنهاج استخراجه ؟
وكأنّ كلّ ما لم يكن هنالك في الاستخراج لسطحية معانيه من دنوها لا من نبل الإبانة عنها لا يكون هنالك في مقام الشعر.
وكأنّي ألمح في مثل هذا الإلاحَة إلى أنّ الشعر من شأنه أن تكون معانيه التي هي أدب نفس عربية أبانَ عنها لسانُها معانٍ لطيفة دقيقة ، وكأن من طبيعة الشعر أن يتّسِمَ بما يمكن أن نسميه الغموض الشعريّ المتحاجز عن أن تمتد إليه كل يد .

وهذا يدل على أنّ " ابن سلاّمٍ " بهذا قد أشار إلى قضية الغموض الفني في الشعر، وأنّ هذا من سمات الشعر الخارج من رحم شاعر فحل، فهل لنا أن نقول إنّ هذا كالمؤسس لما جاء عن غير قليل من النقاد من أن طبيعة الشعر مؤسسة على الغموض الفنّي.

يقول "أبو إسحاق الصابئ" (١)في مفتتح رسالته " في الفرق بين المترسل والشاعر:

« إنّ طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه ؛ لأنّ أفخر الترسلِ هو ما وضح معناه ، فأعطاك غرضَه في أوّلِ وهلةِ سماعِه، وأفخرُ الشّعرِ ما غمَضَ ، فلم يعْطِكَ غَرَضَهُ إلاّ بعدَ مماطلَةٍ منه ، وغوص منك عليه »

وهذا من لقانة " الصابئ " في إدراك المفارقة بين ضربين من ضروب صناعة البيان العالي ، وأن لكلّ ما يتواءم مع طبيعته ومكوناته ومراميه العامّة .

ومن البيّن ان المعنى الشعري الذي يفتقر المتلقي إلى استخراجه ليس معدنه بناءً معقدًا متعاظلا متراكبا تراكب الجراد ، فلطف المعنى ليس من المعاظلة التركيبية والتعقيد في البناء، وقد أكّد الإمامُ " عبد القاهر" المفاصلة التامة بين لطف المعاني الشعرية وغموضها الفنيّ والتعقيد والمعاظلة التركيبية ، وقرّر سمو المعاني

---

(١) أبو إسحاق : إبراهيم بن هلال بن زهرون الحرانيّ الصابئ البغداديّ(٣١٣-٣٨٤هـ) كان يدين بدين الصابئة مع مخالطة مسالمة للمسلمين يصوم معهم ويحفظ القرآن الكريم استكتبه الوزير المهلبيّ ،وهو ممن اشتهر بالترسل ،وقد عدّه " الصاحب بن عباد " رابع أربعة هم الكتّاب ،وقد نشر " شكيب ارسلان " جزءًا من رسائل الصابئ يلبنان سنة ١٨٩٨م ،وحقق الدكتور محمد الهدلق رسالته (في الفرق بين المترسل والشاعر) ونشرها في بحوث مؤتمر «قراءة جديدة لتراثنا النقدي» بنادي جدة سنة ١٤٠٩ج٢ص ٥٨١- ٥٩٩

الشعرية اللطيفة المستخرجة من الصور الشعرية المنسوجة المنقادة. ([1])

والنفس السويّة العَليّة تأبي الاستمتاع بما تلامسه الأيدي، ويتقارب في نواله، فطرة فطرها الله – عزّ وجلّ – عليها، ومن ثَمّ كانت المعاني المحتجبة في صورها أحلى وقعًا من تلك المعاني التي تقاذفت على ظهر صورها.

وشأن كلّ لطيف شريف أن يكون « كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقّه عنه ، وكالعزيز المحتجب ، لا يُريك وجهه حتّى تستأذنَ عليْه....

ولو كان الجنس الذي يوصف من المعاني باللطافة ، ويُعدُّ في وسائط العقود ، لا يُحْوِجك إلى الفكر ، ولا يحرك من حرصك على طلبه بمنع جانبه ، وببعض الإدلال عليك ، وإعطائك الوصل بعد الصدّ ، والقرب بعد البُعدِ – لكان " بَاقِلَى حارّ" وبيت معنى هو عين

([1]) لعل مبتدأ ما يظهر منه موقف " عبد القاهر" من الغموض الذي يستوجب العمل على استخراج المعنى ما تراه من تفريقه بين التشبيه والتمثيل ، فيشير إلى أنّ الوصف الجامع بين طرفي التمثيل لا يدرك إلاّ بتأويل وردّ ،بينا الوصف في التشبيه لا يحتاج المرء معه إلى ذلك لتحققه بنفسه في الطرفين ،فالشأنَ إذن في التشبيه أنّه أقرب إلى الجلاء والوضوح ،والتمثيل إلى الغموض الفني والخفاء
وهو فيما ذهب إليه يصدر عن ملاحظة لحال النفس المتلقية الصور الشعرية وما فطرت عليه في تلذذها بتحصيل معارفها ، فيصرح بأنّ « المعنى إذا أتاك ممثلاً ، فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ،وتحريك الخاطر له ، والهمة في طلبه ، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر ،وإباؤه أظهر ،واحتجابه أشدّ.
ومن المركوز في الطبع أنّ الشيء إذا نيل بعد الطلب له ،او الاشتياقَ إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف ،وكانت به أضنّ وأشغف ...» أسرار البلاغة – عبد القاهر – تحقيق: شاكر – ص : ١٣٩

القلادة، وواسطة العقد واحدًا ولسقط تفاضل السامعين في الفهم والتصور والتبيين ، وكان كلّ من روى الشعر عالمًا به ، وكلُّ مَنْ حفظه – إذا كان يعرف اللغةَ على الجملة – ناقدًا في تمييزِ جيده من ردئه..» (١)

وهذا لا علاقة له بتعقد بنية الكلام ومعاظلة تراكيبه، فإنّ المعاني اللطيفة الشريفة لتسكنُ الصورةَ الشعريّة التي أسّس بناؤها على البيان والتفصيل والتخليص ،وفتح السبيل المستوى وتمهيده للفكر، وإقامة المنائر على معاطفه ، فيسلكه إلى اللطائف سلوك المتبيّن لوجهته ، ويقطعه قطعَ الواثقِ بالنُّجحِ في طِيّتِهِ ، فيرد الشريعة زرقاء لم يعكر صفوها ، والروضة غناء لم تطيّر بلابلها .

(وإنك لا تكاد تجدُ شاعِرًا يعطيك من المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب ، وردّ البعيد الغريب إلى المألوف القريب ما يعطي "البحتري" ويبلغ في هذا الباب مبلغه ، فإنّه ليروض لك المهر الأرِنَ رياضة الماهر حتّى يُعْنِقَ مِنْ تَحْتِكَ إعناق القارحِ المذلّلِ ، وينزِعَ من شماسِ الصعب الجامحِ حتّى يلين لك لِينَ المنقادِ الطّيعِ ، ثُمّ لا يمكن ادعاءُ أنّ جميعَ شعره في قلّة الحاجة إلى الفكر، والغنى عن فضل النظر، كقوله :

فؤادي منك ملآن ❖ وسرّي فيك إعلانُ

وقوله عن أيّ ثغرٍ تبتسم وهل ثقلَ على "المتوكّل" قصائده الجياد حتّى قلّ نشاطه لها واعتناؤه بها إلا لأنّه لم يفهم معانيها كما فهم معاني النوع النازل الذي انحط له إليه ؟ ..» (٢)

---

(١) أسرار البلاغة –ص : ١٤٣

(٢) السابق ص : ١٤٦ « حرصت على أن أنقل لك في تفسير مقولة ابن سلام « ولا معنى يستخرج» كلامًا مما جاء به عبد القاهر من بعد أكثر من

" البحتري " قد جمع بين تعبيد الطريق إلى المعاني اللطيفة وحاجة تلك المعاني إلى استخراجها ،وحاجة المتلقي إلى إعمال فكره بما يحقق له الشعور بلذة الطلب والظفر معًا ، فيتوافد عليه فيوض اللذة والنشوة ،وهذا من كرم الشاعر الفحل ،وقِرَاه المتلقيَ لما يراه من فضل متلقي شعره عليه ، فهو الذي يمنح الشاعر سيرورته وخلوده البيانيّ .([1])

❖❖❖

المهم أنّ مقالة " ابن سلاّمٍ " في أن ما كان مصنوعًا مفتعلا موضوعا لا معنى يستخرج منه هو معدن القول في أن المعاني الشعرية من طبيعتها أنها مما يستخرج لا مما يتقاذف على ظهر العبارة .

وانظر قوله (يستخرج) بما بني عليه من "السين" والتاء" في صدر الفعل ،والأصل فيهما الدلالة على الطلب ،وشأن العربيّ الشّريف النفس أنه لا يطلب إلا ما يفتقر إليه ، وهذا أصلٌ قائمٌ في نفسه رمز إليه في بيانه بتصدير الفعل بهذه "السين" و" التاء" ليكونا الرسول المنبئ بما حمله على ذلك الطلب

قرنيين إشارة إلى أن في كلام عبد القاهر شيئًا من إجمال عبارة ابن سلام، وذلك أن قوله « يستخرج» غنيّ ماجد ، لايقولها ابن سلام عفوًا .

([1]) لعل مما يهديك إلى أن بيان العربية العالي فضلا عن البيان العَلِيّ يرفع قدر غموض معاني البيان على سفور كل معانيه أنّ القرآن الكريم قد حثّ على تدبره :

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ) (ص:٢٩)

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد:٢٤)

ولا يكون تدبر مع سفور معنى ،ولا يكون تدبر مع تعقد بيان ،وبذلك بانت القضية : علاقة غموض المعاني الشريفة بتعقد المباني .

وفي الاستخراج معنى المحاولة والمصابرة ، وذلك لا يكون في طلب ما لا مسته الأيدي لقربِه وابتذاله .

والوجه في أن المصنوع المفتعل الموضوع لا يكون أهلا للطيف المعاني أنّ المعاني اللطيفة وليدة نفس شريفة عاشت تجربة ما تصور تها وذاقتها وامتلأت بها فجرت في بيانها، ومن ضنّها بولائدها جعلتها من اللُّطفِ الحاجِزِها عن أن ينظرها من لا يتجاوز ناظرُه ما تلامس يدُه ، وذلك شأنُ كلّ صاحب كريمة ، يُحاجزها عن أن تكون ملمسًا لمن لا يكون أهلاً.

كلّ معنى تمخضته نفسٌ حملت به نكاحًا لا سفاحًا من شأنه أن يكون لطيفًا عزيزًا محجبًا عمّن ليس لوصله بكفْءٍ .

وهذا لايكون إلا إذا عاشت نفسُ القائلِه التجربة وذاقتها وانفعلت بها ، فخرجت القصيدة نسيبة حسيبة .



٤= أن يكون في الشعر مثل يضرب .

هذا آيةٌ على ما تتسم به النفس الشاعرة المبدعة ذلك الشعر بعمق البصر ونفاذه واتساع أفق المعرفة وتكاثر المحصول الثقافي المترافد إليها من التواصل المعرفي بالحياة والموروث الشعري ، ولهذا كان من أركان التكوين النفسيّ والمعرفيّ للشاعر أن يكونَ راوية بل جعل "الأصمعي" شيخ "ابن سلام" الفحل هو الشاعر الراوية " فإن من سمات الفحولة احتواء الشاعر ألفَ شاعرٍ في رحمه .

وأنت إذا ما نظرت في تسمية العرب حامل الشعر راوية ، وهي البعير الحامل للمزادة فيها الماء ، أو المزادة نفسها .تلحظ معنى أثر الشعر المحمول فيمن يحمل إليه ،وأن الشعر للقلوب إحياءٌ

وإرواءً، كمثله الماء للأجساد إحياء وإرواء ، ولا يرغب عن الشعر قلب معافَى إلا إذا رغب الجسد الذي احتضنه عن الماء ، ولست بالواجدِه

ورواية الشعر كمثل رواية العلم ليست مجرد حمل للشعر والعلم إلى من هو المفتقر إليه بل هي رواية ترفدها دراية ، ولهذا تجد أهل العلم كالقاضي الجرجاني يجعلون الشعر من أربع :

طبع وذكاء ورواية ودراية ([1])

وإذا ما تحققت تلك المقومات في النفس الشاعرة كان في نسيجها الشعري ما تتعلق به النفوس المتلقية تتخذه مثابة تستحضر بوجيز بيانه اللسانيّ فيض الثقافة العميقة المديدة ، وذلك هو المثل الذي يتخذ مضربا .

قيمة المثل الشعري هو استحضار ثقافة وخبرة حياة كأنّه يضع إزاء المتلقيه فيضًا من الخبرة وأنهارًا من ثقافة الحياة التي تهذّب نفس المتلقي بمقدار ما تؤنسها ، فيتحقق في ذلك أنّ الشعرَ علمُ العرب وديوانها .. ولذلك كان سمتا غالبا على العربي أن يتمثل بالشعر في كثير من المواقف التي يقوم فيها ، وهذا التمثلُ في حقيقته شرح لموقف المضروب فيه المثل أو المتمثل فيه

وقد كان الرسول َ- صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه. وسلَّمَ - يتمثل ببعض الشعر، فقد جاء في " الأدب المفرد " للبخاري " أن أمّنا " عائشة "- رَضِيَ اللهُ عنْها - قد سألها " عكرمة " :

---

[1]) يقول القاضي الجرجاني :
" إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان)(ص ١٥- الوساطة).

" هل سمعت رسول الله َ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ - يتمثّل شعرًا قط ؟

فقالت : أحيانًا إذا دخل بيته يقول : " ويأتيك بالأخبار من لم تزود "

وجاء فيه قولها َ. رَضيَ اللهُ عَنها -" كان النبي َ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ - يتمثّلُ بشيءٍ من شعرِ ابن رواحة " .

ولولا أنّ في التمثل بالشعر ما يعود على النفس بالخير ما كانت الحضرة النبوية بالملتفتة إليها من شريف مقصدها وجلال همّها .

وقد كان النّبيّ َ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ - يطلب من " الصديقة" َ. رَضيَ اللهُ عَنهَا - ما كانت تتمثل به من أبيات .

روى ابن عبد ربه في العقد ،وابو الفرج في الأغاني أنّ رسول الله َ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ - دخل على عائشة وهي تتمثل بقول الشاعر :

ارفع ضعيفك لا يَحُرْ بك ضعفه يومًا ، فدركُه العواقب قد نما

يَجْزيكَ ،أوْ يُثْنِي عَلَيْكَ ،فإنّ منْ أثْنى عَلَيْكَ بما فعلتَ ، فقدْ جَزَى

فقال َ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ - : صدق ، ياعائشة : لا يشكر الله من لا يشكر النّاس .(1)

وفي رواية قاتله الله ، لقد أتاني جبريل برسالة من ربي :

" أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة ، فلم يجد لها جزاء إلا الثناء عليه ، والدعاء له ، فقد كافأه (1) .

---

(1) صدر الخبر لا يقوم في كتب السنة لمّا عجزه :(لا يشكر الله من لا يشكر النّاس) فإنه قد رواه أبو دلود في سننه: كتاب الأدب باب في شكر المعروف (ج ٢ص ٦٠٦) والترمزي في جانعه كتاب البر باب : ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك – حديث رقم ١٩٥٤

بل كان لتمثل عائشة َ- رَضِيَ اللهُ عَنْها – بين يديّ النبي َ– صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِهِ وسلّمَ – بشعر لأبي كبير الهذلي من الخير الذي تنشرح له نفس كل امرأة مسلمة حين يتنزل عليها من زوجها المسلم :

يروي الحافظ الأصبهانيّ في الحلية أنّ أم المؤمنين " عائشة"َ- رَضِيَ اللهُ عَنْها – قالت : " كان رسول الله َ– صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِهِ وسلّمَ – يخصف نعله ، وكنت أغْزِلُ ، قالت : فنظرت إلى رسول الله َ– صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِهِ وسلّمَ – فجعل جبينه يعرقُ ، فجعل عرقه يتولدُ نورًا !!! ، فبُهِتُّ، فقال َ– صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِهِ وسلّمَ – : مالك بهتّ ؟ !! فقلت : يارسول الله ، نظرت إليك ، فجعل جبينك يعرق ، وجعل عرقك يتولد نورًا ، فلو رآك " أبو كبيرٍ الهذلي " لعلم أنّك أحقُّ بشعره. قال َ– صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِهِ وسلّمَ – : وما يقول ، يا عائشةُ ، أبو كبيرٍ الهذليّ ؟[2]

فقالت : يقول :( )

(١) روى أبو داود بسنده من كتاب الزكاة باب عطية من سأل بالله - عَزَّ وَجلَّ - :" ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوا به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه " ج١ص ٤٢٤)

(٢) البيتان من قصيدة لأبي كبير في شرح أشعار الهذليين ج٣ص١٠٦٩-١٠٨٠، وهما في القصيدة متابعدان بينهما ثلاثة أبيات ، وفقي رواية " الحماسة تقديم وتأخير في الأبيات ولعل لمّ المؤمنين َ- رَضِيَ اللهُ عَنْها - استغنت بما هو مناط التمثل

والشاعر يثني على الممدوح بأن أمه لم تحمل به ، وفيها بقية من حيض ،ولم ترضعه وهي حامل ،وهو الغيل ذو الأثر المضني

ويثني عليه بأنك إذا ما نظرت إلى خطوط جبهته رايتها بارقة كبرق السحاب العرض في جانب السماء الممطر.

وَمُبَرّاً مِنْ كُلِّ غُبّرِ حيضةٍ ◆ وفسادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ
وإذا نظرتَ إلَى أسِرَّةِ وَجْهِهِ ◆ بَرقَتْ كَبَرْقِ العارضِ المُتَهَلّلِ
قالت : فوضع رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آله وصَحْبِه وسلَّمَ - ما كان في يده ، وقام إليَّ ، فقبَّل ما بين عينيَّ ، وقال : جزاك الله ، ياعائشة ، خيرًا ، ما سررت مني كسروري منك" ([1])
وعائشة في تمثلها بالشعر، وإن كانت العلية فإن ذلك ديدن كثير من الصحابة بل العرب. ([2])

وإذا ما كانت تلك منزلة المثل الشعري فليست بالتي تغري أن تكونَ القصيدة قد غلب عليها المثل ، فإنَّ ذلك مصيبٌ نسيجها الشعِريَّ بالهلهلة المهلكة ..
والشأنُ في المثل الشعري حين ينسج في القصيدة أن يكونَ حاملا من العرفان ما يتأخى مع ما تحمله الصور الشعرية في القصيدة

◆◆◆

([1]) أرأيت إلى جليل خلقه - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ - وحنوه ومودته وعطفه ؟!!! أيَّ نبيٍّ قد كان ؟ وأي زوج قد كان ؟ بل أيَّ قدوة هو قد كان - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحْبِه، وسلَّمَ - ؟ ولو أنَّ أدعياء تحرير المرأة راجعوا علاقة النبي - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ - بالمرأة لمًّا وزوجًا وبنتًا وجارة لعلموا أنَّ ما بين هديه - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ - وما يتغالون فيه بون جد وسيع ولكنَّ أدعياء تحرير المرأة استَغْرَبُوا فاستغربوا. واتخذوا لهم كبيرة فأوردتهم موارد أخوالها على الشَّاطئ الغَرْبيِّ ، وبئس الورد المورد .
([2]) يقول "ابن المقفع": (إذا جعل الكلام مثلا كان ذلك أوضح للمنطق ، وأبين في المعنى ، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث) (الأدب الصغير ص ٤٠-ط :صبيح – ١٣٨٠
وعبارة "ابن المقفع " عبارة ثرية كريمة ، تأمل قوله : " أبين في المعنى وأوسع في شعوب الحديث" فإنه كريم ماجد

٥ = أن يكون الشعر مديحا رائعاً ،أو هجاءً مقذعًا ، أو فخرًا معجبًا ، أو نسيبًا مستطرفًا.

يقول " ابن سلاّمٍ " " سألتُ الأسيديّ - أخا بني سلامة – عنهما (اي جرير والفرزدق) فقال : بيوتُ الشعْر أربَعةٌ :

فخرٌ ومديحٌ ونسيبٌ وهجاءٌ ،وفي كلها غلب جرير :

في الفخر في قوله :

إذا غضِبَتْ علَيْك بَنُو تمِيمٍ ❖ حسِبْتَ النّاسَ كلَّهمُ غِضَابَا

وفي المديح قوله :

أَلَسْتُم خَيَرمنْ رَكِبَ المَطايَا ❖ وَأَنْدى العَالَمِينَ بُطُونَ راحِ

وَفِي الهجاءقوله :

فَغُضّ الطَرْفَ إنَّكَ منْ نُميرٍ ❖ فَلا كعْبًا بَلَغتَ وَلا كِلابَا([1])

وَفِي النّسيب قوله :

إنّ العيونَ التي فِي طرْفها مرضٌ ❖ قَتَلْننا ، ثُمّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانا ([2])

([1]) يروى أنّ " الفرزدق وقف على جرير بمربد البصرة ،وهو ينشد قصيدته التي هجا بها الراعي النميري ، فلما بلغ إلى قوله :

فغُضّ الطَرْفَ إنّكَ منْ نُميرٍ * فلا كعْبًا بلغتَ ولا كِلابَا

أقبل الفرزدق على راويته ،وقال : عضّه ،والله ،فلا يُجيبه أبدا ،ولا يفلح بعدها ، فلمّا بلغ جرير إلى قوله :(بها برصٌ بجانب إستَكيْها) وضع " الفرزدق " يده على فيه ،وغطى عَنْفقته (شعيرات بين الشفة السفلى والذقن) فقال جرير :
(كعنفقة الفرزدق حين شابا)

فانصرف الفرزدق ،وهو يقول : اللهم أخزه ! والله لقد علمتُ حينَ بدأ بالبيتِ أنّه لا يقول غير هذا ، ولكني طمعتُ في الآ يأبَه ، فغطيتُ وجهي ، فما أغناني ذلك شيئًا .

([2]) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٣٧٩-٣٨٠

وفي هذا ارهاص بتقسيم فنون الشعر بحسب الأغراض يسبق ما جاء به "ابو تمام" من جعل الشعر أغراضًا عدّة في كتابه (الحماسة) فكانّي بـ"ابن سلاّمٍ" يجعل شعر العربية قائمًا على هذه الأغراض الكلية الأربعة : المدح والهجاء والفخر والنسيب . فأكثر ما يكون من الشعر مثابته إلى واحد من هذه الأغراض الأربعة واصفًا كلّ غرض بما يمثل شرفه :

- روعة المدح
- وإقذاع الهجاء
- وتعجيب الفخر
- واستطراف النسيب .

وهذه الأوصاف هي عيار المفاصلة بين ضروب المدح أو الهجاء أو الفخر أو النسيب قامت به قصيدة نسيبة ،وما جاءت به قصيدة زنيمة دعيّة .

وهي أوصاف مردُها إلى أثر الشعر ، وفي هذا إلاحة إلى أن من عيار الشعر النسيب الحسيب أثره في المتلقين ، فهذه الآثار آية من آيات نجابته وإنجاده .

وهذه الأغراض الأربعة إذا ما نظرت ألفيتها أغراضًا كلية هي عماد رسالة الكلمة الشاعرة عند العرب .



الشعر ديوان العرب مسجل أمجادها والباعث على سيرورة المجد في الأجيال المتعاقبة ،وهذا لا يقوم إلا إذا ما سجلت محامد الماجدين ابتغاء التحريض والإغراض بتناسل المجد من الأجداد إلى الأبناء والأحفاد .

وهذا ما أدركه الشاعر العربي ، فرأى أن من رسالة الشعر أنْ يسجل آيات المجد ،وأن يعبد الطريق إليه وأن يغري به .

الشعار الفحل هو ذلك الذي يتخذ الشعر رسالة حياة ،وأداة دعوة إلى كلّ ما هو شريف ، فيتغنى بنماذجه وأربابه ، فتمتلئ القلوب بحبه والاستشراف إليه .

وقد جعل ابن سلام آية المدح أن يكون رائعًا أي يفزع الرجل إلى الإعجاب بالحسن الذي صوره المدح ، فأصل الروع : الفزع ، وهو ضربان فزع إلى الشيء من عظيم نفعه وحسنه ،وفزع منه من شديد ضره و نكره ، والشيء المديح الرائع هو الذي يجعل سامعه يفزع إلى ما مدح به الممدوح لما فيه من كريم النفع وعظيم الحسن ،وهذا لا يكون إلا مع صدق الوصف وكريم الإبلاغ في التصوير ، ولهذا نجد الفاروق عمر يجعل زهيرًا عليّ المنزل بين الشعراء من أنه " لا يمدح الرجل إلا بما فيه " (1) فهو صادق في الرسالة لا يحاجز عن اتقان الإبلاغ في التصوير بل هو يحفز إلى تلك المبالغة أي البلوغ بالوصف إلى حدّ كماله دون مجاوزة إلى غلوٍ تنفر النفس منه .

صدق الرسالة وكمال إتقان التصوير به تتحقق للمدح روعته وإفزاعه السامع إلى الإعجاب بذلك الحسن الصادق واقعا والسامق تصويرًا

ومن ثمّ لا يكون حميدًا ذلك الشعر الذي يقوم إلى مدح لا يحفز السامع إلى الإعجاب بحسن ما به كان المدح ،ولا يفزعه إلى الاستشراف بالنوال ممّا مُدح به ، وهذا يؤكد ما بالغت في لفت

---

(1) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٦٣

البصائر إليه من رسالة الشعر فينا - نحن العرب - وأنّه سيبقى ما بقيت العربية ديوان مجد ومفْزعًا إلى عَلِيّ المنازل .
فإذا ما اتخذ بعض الشعراء مدائح الولاة ومن دونهم سبيلا إلى اكتساب عرضٍ ، فما أنت بالواجد فحلا يفعلها مع دنيءٍ وإن بذل عرض الدنيا كلها ، فهو لا ينسى البتة رسالة القصيدة المادحة إنها الفن الحامل رسالة اجتماعية نبيلة (1)
وأنت إذا ما نظرت في القصيدة المادحة في شعر العربية والتي تروع السامع وتفزعه إلى ما صورته من كريم الفعال تجد أن أعظم من قام عليه المدح أمران كليان :
الشجاعة والكرم ،ترى زهيرًا قد جمعهما في قوله :

(1) يتقانف إلى قلبك لأنّ المتنبي وهو من فحول شعراء العربية – لاريب – قد تهاوى إلى مدح (كافور) فكيف الدعوى بأن الفحل لا يفعلها مع دنيء ؟
الذي انا عليه لأنّ المتنبي ما فرّ إلى كافور إلا إفزاعًا لسيف الدولة مما أوقعته فيه بطانته من الرغبة عن القيّم على ديوان مجده: المتنبي ، فبعث إليه المتنبي بفراره إلى كافور رسالة تؤذن فيه صباح مساء إنك لم تدرك عظيم قدر ما يسجله الشعر من معاليك ، فألجأته إلى أن يصور لك الجانب الآخر من مثالب السّاطين على مقاليد الأمور أبناء العبيد في ديار أنت أولى بأن تكون وليها ،ولذلك لم يخلص لكافور المدح ،ولم يكن جليل مطلوبه منه عرضًا من المال بل كان مطلوبه ولاية وإمرة إشارة منه إلى انه الأحق بها ، فالمتنبي فيما اذهب إليه لم يمدح كافور مدحا يروع سامعه إلى محاسن يمدح بها كافور ، فما كان للمحاسن التي يفزع إليها كلُّ شريف النفس من وجود في نفس كافور ،ومن ثم لم يكن لها وجود في مرأى عين المتنبي مثلما لم يكن لها وجود في نسيج صنعته الشاعرة ، وإنما كانت تلك منه تنبيها لسيف الدولة ألا يفرّط في المسجل مجده : المتنبي مثلما لا يفرط في سيفه الذي يخلق به ذلك مجده، وكل مجد بحاجة إلى سيف يخلقه ، وإلى شاعر يسجله ويصوره ،وليس كل سيف بالمصطفى والمسترضى،وما كل شاعر بالمستعلى والمفتحة له الأبواب ، فإن لم يكن المتنبي فمَنْ ؟

مَنْ يَلْقَ يومًا على عِلاتِهِ هَرِمًا يَلْقَ السّماحة منه والنّدى خُلُقا
ليث بعثَّر يصطادُ الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا
يطعنهم ما ارتموا حتّى إذا اطّعنوا ضارب حتّى إذا ما ضاربوا اعتنقا

وهما خلقان يطويان في أقطارهما جمهرة المحامد الأخرى ، فما كريمة يمتدح بها إلا وهي منسولة من الشجاعة أو الكرم ، بل إنك إذ تتفرس الأمرين :(الشجاعة والكرم) تجد كلا يؤول إلى الآخر ، فلا يكون الشجاع إلا الكريم الذي لا يبخل بما يمكن أن يبخل به غيره أليس هو الذي يجود بنفسه دفعا عن غيره ؟

أي كرم يكون فوق ذلك ؟

والكريم لا يكون إلا إذا ملك القدرة على اقتحام مخاوف النفس من قسوة الافتقار ، فلا يُلقي لتلك المخاوف بالا ، لا يخاف الفقر، يهوي عليه يصرعه ، فإذا كلّ نعمة عنده هي المبسوطة لمن إليها أمّ وفيها رغب .

الكريم لا يكون إلا شجاعًا ،والشجاع لا يكون إلا كريم ، فمن جاد بنفسه وحاجز عن ماله فما هو بالكريم ،ومن بذل عرَض الدنيا وحاجز عن بذل نفسه دفاعا عن الآخر فما هو بالكريم .

وكلّ أمّة تسابق أبناؤها إلى هاتين الخلتين (الشاعة والكرم) لا يكون لها إلا المجد ما بقيت الحياة .

❖❖❖

والشاعر الفحل يرسم الصورة القميئة لكل ما يعيق حركة الأمة إلى مجدّها من دنيء الصفات ، فيلحا كلّ من تلبس بشيءٍ من تلك الحاجزات عن المعالى ، فيسكب عليه شواظ الهجاء المقذع ، ليفر منه العقلاء فرارهم من الأسد،ولولا القيمة الأخلاقية العلية للهجاء

شعرًا ما كان مقامُ النبوّةِ بالمصغِي إلى نِبالِ الهجاء لأئمة الضلالة من الكافرين ، ولما حثّ النبيّ – صلّى الله عليْه وعلى آلِه وَصَحْبِه وسلَم – شاعرَه حسّان بن ثابت – رَضِيَ اللهُ عنه – على هجاء قريش قومه ولما بين له عظيم وقعه فيهم (١)

---

(١) روى البخاري بسنده عَنِ الْبَرَاءِ – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِحَسَّانَ « اهْجُهُمْ – أَوْ هَاجِهِمْ – وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » . كتاب (بدء الخلق باب(٦) حديث : ٣٢١٣
وروى مسلم بسنده عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ « اهْجُوا قُرَيْشاً فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ ». فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ :« اهْجُهُمْ ». فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ حَسَّانُ : قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ فَقَالَ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِى فَرْىَ الأَدِيمِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :« لاَ تَعْجَلْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا – وَإِنَّ لِى فِيهِمْ نَسَباً – حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِى ». فَأَتَاهُ حَسَّانُ ، ثُمَّ رَجَعَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ لَخَّصَ لِى نَسَبَكَ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعَرَةُ مِنَ الْعَجِينِ .
قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صلّى الله عليْه وعلى آلِهِ وَصَحْبِه وسلّم – يَقُولُ لِحَسَّانَ : « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لاَ يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ».
وَقَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صلّى الله عليْه وعلى آلِهِ وَصَحْبِه وسلّم – يَقُولُ : « هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى ».
قَالَ حَسَّانُ :

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فَأَجَبْتُ عَنْهُ * وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّداً بَرًّا تَقِيًّا * رَسُولَ اللَّهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي * لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
ثَكِلْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا * تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفَيْ كَدَاءِ
يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ * عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ * تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإِنْ أَعْرَضْتُمُو عَنَّا اعْتَمَرْنَا * وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَإِلاَّ فَاصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْمٍ * يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْداً * يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْداً * هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ

وفي هذا دعوة للشاعر المسلم أن يسلّ سيف هجائه على رقاب أهل الضلالة المناوئين أهل الإسلام ،وان يكون هجاؤهم مقذعًا يصور فساد حركتهم في الأرض ، وسوء عقباهم ،وعقبى الذين اتخذوهم أولياء من دون الله – سُبْحانَه وتَعَالَى –ورسوله – صلّى الله عليْه وعَلى آلِهِ وَصَحْبِه وسَلَم، فالفنّ على اختلاف ضروبه وأدواته رسالة تسمو بالإنسان حسًا ومعنى .([1])

وقد جعل ابن سلام آية الهجاء وعياره الإقذاع .

والإقذاع الفحش في الوصف ،حتى يستحيي من ذكره ونشره ،ولذا قالوا :«الهجاء المُقْذع : الذي فيه فحشٌ وقذفٌ وسبٌّ يقبح نشره » (لسان العرب) فهذا أدعَى إلى أن يتحاشى المرء من أن يتلبس بشيءٍ مما يُهجى به فيكون هجاء مقذعا .

وهو دعوة إلى الإبلاغ في التنفير من سيء الأخلاق والفرار منها لأنها معرّة الدهر ،ومن ثمّ لا يتسارع الشاعر في هجائه إلى ما يمكن أن يعتذر عن التلبس بشيء منه ، فما كان سبيل إلى الاعتذار عن ملابسة اقترافه فما هو بأهلٍ لأن يهجى به أحدٌ

وفي اختيار ابن سلام عيار الهجاء ملاحظة أمرين :

لنَا فِي كُــلِّ يَوْمٍ مِنْ مَتَعَدٍّ* سِبَــابٌ أَوْ قِتَــالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُــولَ اللَّهِ مِنْــكُمْ * وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ
وَجِبْــرِيلٌ رَسُــولُ اللَّهِ فِينَا* وَرُوحُ القُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ)

(كتاب : فضائل الصحابة – باب فضائل حسان)(حديث رقم ٢٤٩٠ /١٥٧

([1]) وكمثل نبال الهجاء شعرًا كلّ نتاج الكلمة السيف : بحثًا أو مقالا أو كتابا أوبرنامجا إعلاميا أو مسرحية مسلمة المضمون والشكل والأداء أو تمثيلية أو أغنية مسلمة المضمون والشكل والأداء ، كل ذلك لا بد أن يكون رماحًا في صدور أهل الضلالة وأخدانهم وحفدتهم من الماسونيين وأدعياء التنوير والنخبة المثقفة ...

الأول: الصنعة ، وإذا ما كانت صنعةٌ كان ثَمَّ معنى لطيفٌ شريف والآخر: الأثر في المستمع ،ولا يكون أثر في المستمع إلا من حسن تصوير لصدق تصور ،ومن ثم كانت البلاغة عند الأئمة :

« إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»

وهذان: الصنعة والأثر في المستمع بُعدان رئيسيان من أبعاد التفكير النقدي للشعر.

◆◆◆

والشاعر الفحل هو ذلك الذي يرى نعمة الانتساب إلى أهل المعالي هو الفخر الذي لا يطاول ، فيتغنّى به تغنيًا يعاضد تغنيه بأنغام المدح الصّادق ، ولست بالذي يجد فحلا يفتخر بما ليس من آيات المجد المُؤثّل الذي يبقى على حدثان الدهر ، تبلى الأعصار والأمصار ولا يبلى ،ولا تكاد تجد شاعرًا لم يأخذ من الفخر بنصيب رغيب ، ولا يكون الفخر إلاّ عن محبة لما يفتخر به ،وفي هذا إلاحة إلى الإغراء بالأخذ بما به يفتخر ، فذلك من معالم جمال النفوس .

وشعر الفخر في العربية مما تطرب له النفس السوية طربًا لا يُرديها في مهاوي العُجب بل يقيمُها على جادة الاستشراف إلى بناء طريف المجد على تليده (1).

---

(1) الذي جاء في السنة النبوية من النهي عن الفخر إنما هو نهي عن الفخر بما كان من أمر الجاهلية أما الفخر بعليّ المحامد وأعلاها الانتساب إلى الإسلام فلا يُنْهى عنه بل هو من الشكر على النعمة ، وكذلك الفخر الذي يذكر بما وُرِّث الرجلُ من جلائل الأخلاق فبنى عليها وأعلاها فذلك الذي هو الحميد المجيد

روى مسلم بسنده عن أبي مَالِكٍ الأَشْعَرِىَّ أَنَّ النَّبِىَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ :

« أَرْبَعٌ فِى أُمَّتِى مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِى الأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِى الأَنْسَابِ وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ » (كتاب: الجنائز– باب (١٠) حديث رقم(- ٢٩/٩٣٤)

وعيار الفخر التعجيب أي أن يقيم المستمع في سياق التعجب ما عظيم ما يستمع إليه من آيات الفخر الصادق ،وذلك لا يكون إلا من دقة التصوير وطرافته لتليد المآثر وطريفها ، فيجمع جمال المبنى إلى جلال المعنى ، فيدع المستمع بين عجيبين لا يدري في أيهما يقيم ،وبأيهما يعجب .

جعلُ آية الفخر أن يحدث في المتلقي تعجيبا-وفي التعجيب استغراب - يهدي إلى أنّ الفخر إنما يكون بما تفرد به الفاخر لا بما ابتذل من مكارم الأخلاق ، وذلك ليستحيل الغريب منها معروفًا ، فيتسارع إليه الراغبون ، فذلك هو الفنّ الهادف الذي تشرق منه

➡ فهذا تفاخر بالأحساب على منهاج الجاهلية أمّا فخر الشاعر بما هو من على الفعال إغراء باكتسابه فهو الحميد

ورى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن عباس أن النبي - صلّى الله عليْه وعلى آلِهِ وَصَحْبِه وسلّم - قـال: « لا تفخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية فوالذي نفسي بيده لما يدهده الجعل بمنخريه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية » (مسند الإمام أحمد ابن حنبل – ج ١ص ٣٠١)

ورى ايضا بسنده عن أبي هريرة أنّ النبي - صلّى الله عليْه وعلى آلِهِ وَصَحْبِه وسلّم – قال: « ليَدَعَنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوامٍ إنّما هم فحمٌ من فحم جهنم أو ليكونَنَّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن .

وقال أن الله - عزَّ وَجلَّ - قد أذهب عنكم غيبة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي الناس بنو آدم وآدم من تراب. » (مسند الإمام أحمد – ج ٢ص ٢٦١)

قوله : « فخرهم بأقوامٍ إنما هم فحم من فحم جهنم » يفهم منه محبة الفخر بما هو محبوب رسول الله - صلّى الله عليْه وعلى آلِهِ وَصَحْبِه وسلّم – من على المكارم وجليل مناقب الإسلام .

فالفخر في الشعر لايُحاجز عنه إلا سوء الغاية التي يساق إليها ، فإن استقام المسير ونبُلت الغاية فذلك ما يستشرف إليه .

الفكرة من خلال الصورة، فيتسلل إلى النفس السوية يملؤها بما يحمل من جليل المعاني وشريفها ، فتنقاد إلي ما حمّل .

◆◆◆

وإذا ما كان المدح والفخر إبرازًا لمحاسن الخُلُق في الرجال ، فإن المرء ليهش لكلّ جمال ،ومنه جمال الخِلقة في النساء ،وجمال الأنس بهنّ لملاحتهن ، و الأنس بهن ريحانة روح .ولا تكاد تجد سويّ النفس سليم الطبع إلا وفيه ميل فطريّ إلى الأنس بهن ،ولكن الإسلام قد هذب ذلك الطبع وطهره وسما به .

والشاعر الفحل هو الذي يحدو النفوس إلى الأنس بالجمال القائم في أخلاق النساء أولا وخلقهن ثانيًا ، فيرى في ذلك آيات الجمال الساكب في النفوس الرّوح والبهجة فتقبل على الحياة وتستمتع بنعم الله َ– عزّ وَجلّ – استمتاعًا لا يخرجها عن مسيرها إلى ذروة المجد وشرفه .

أرأيت إلى كعب بن زهير وقد بنى قصيدته :

بَانتْ سُعَادُ فَقَلْبي الْيَوم مَتْبُولُ ◆ مُتَيّمٌ إِثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

على النسبيب الحسيبِ ، وهي التي تغنى بها بين يدي الرسول – صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ – والمقام مقام جلل ،وغايات التغني بالقصيدة جد عصيبة ورهيبة .

أرأيت إلى رجل قد أهدر الجليل المقتدر – صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ – دمه ، فإذا به يتغنى فيفتح الغناء بذلك النغم الحسيب أترى للشيطان في هذا التغني نصيبا ؟

كيف ، والنبي – صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسلّمَ – يسمع والصحابة من حوله والموقف جلل ؟!!

إن استحضار سياق التغني بتلك المعزوفة وغاياته لتجعلك تستمع إلى ذلك التغني بهذا النسيب ،وأنت مستحضر جلال الموقف ورهبته ،وهذا يعينك على أن تعرف للنسيب الحسيب قدره أمّا التهتك في الوصف الحسي الشيطاني في مثيرات الشيطان في الإنسان فذلك الشعر الذي لا خير فيه .

والغالب على الشعر في العربية أنّه لا يُصفِي النسيب قصيدةً ، فيقصرها عليه ، بل الغالب أن يجعله بين يدي الأغراض الأخرى ، وكأنّ فيه استفتاحًا لمغاليق النفوس ، وهم يجرون فيه روحَ ما جعل بين يديه من مدح أو فخر أو غير ذلك ، فلا يشيع في ديوان العربية قصائدُ النسيب والغزل على نحو ما أحدث من بعد ،وعلى نحو ما استخلص بعض الشعراء أنفسهم له ، فاستهتروا به ، فأخّرهم ذلك عن أقرانهم كمثل ما أنت واجده في شأن " ذي الرمة" وهو من هو ، ولو أنّه لم يخلص نفسه لذلك النسيب لكان جديرًا بأن يقوم في مصافٍ جرير والفرزدق والأخطل

وآية النسيب الاستطراف وفي الاستطراف استحداث ما لم يكن قبلُ([1]) ، فتقبل النفس عليه من أنها شغوفة بكلّ جديد ، وكان من لقانة "ابن سلام" أن جعل الاستطراف آية النسيب ، لأنّ الجمال يبلى الإحساس به بالألفة ، وإن بقي الجمال في الجميل على حاله ، فداء الإحساس بالجمال ألفته ، فكان من حق الإحساس به أن يستطرف الجمال ، فإذا ما كان تشبيه الحسناء بالبدر في نفسه جميلا فإنّ ابتذاله قد أفقد النفس نعمة الإحساس بما فيه ،ومن ثم

([1]) أطرفتُ الرجلَ : أعطيته ما لم يكن عنده من قبل ، وكلّ مستطرف مستحدث تعجب النفس به لمَا ما استحدث فنفرت من النفس السوية فليس بمستطرف

كان جمال الجنة متجددًا ، فتكرير معاني النسيب وصورها مقتلة له ، وحسن تصريفهما منحة فتاء

وحاجة ألأمّة إلى النسيب كمثل حاجتها إلى المدح والهجاءِ والفخرِ ،فبالنسيب تنشرح النفس السويّة وتقبلُ على الحياة ، فتعمّرُ الأرض بمكارم الفِعال ،وتغرس فيها حميد الآثار .

وكلّ نسيب يذكر الرّجلَ بمعنى الرجولة فيه ويذكر المرأة بمعنى المروءة فيها هو من علَيّ النسيب وجليله وجميله ، أمّا ذلك النسيب الذي يستثير كوامن الحس الإنسانيّ ، فيشغل العقل ويضعف سلطانه فلا يبقى له على الجوارح إمرة ، فذلك القبيح الطريح .

◆◆◆

وأنت إذ تنظر في هذه المقاصد الكبري للعزف على أوتار السحر(الشعر) تجد أنّ مبنى تلك المقاصد على الوصف ، فليس عماد شيءٍ منها غير الوصف مدحًا وفخرًا وهجاءً ونسيبًا ، والوصف ليس غرضًا بقدر ما هو منهاج

الوصف هو عماد الشعر ،والشاعر لا يصف لك ما ترى عينك مما أحاط بك أو أحاطت به ،وإنما يصف لكَ الأشياء قائمة في صدره هو ، فتعيشها مرتين مرة في واقعها المنظور ،ومرة في نفس الشاعر .

هو لا يحدثك عما رأت عينه ولا ما يمكن أن ترى عينك ، وإلا ما استحق – البتة – أن يصغى إليه .

إنه الواصف لك كيف الأشياء في داخله ، هو ينقلك إلى داخله تنظر وتبصر ، فترى ببصيرتك غير الذي رأيت ببصرك ،ولهذا سمي شاعرًا .

أنت لا تجد موقفا شعريا من أي شيء مما يحيط بالشاعر أو يتلبس به ، وهو ما يمكنك أن تسميه التجربة الشعرية يقوم تصويره على غير الوصف : الرسم اللساني لما يقوم في النفس ، ويعتلج فيها

التصوير الشعري أيًا كان موضوعه ، وأيًا كان مأمّه لا يعدو أن يكون وصفا وتمثيلا يتخذ البيان اللساني معادلا محسوسا لما يعتلج في النفس من معاني الفكر والشعور.

الشعر - الذي هو الشعر - هو ما تحققت فيه أركان الوصف الذي هو المظهر الكلي للبيان الشعري .

❖❖❖

= الشعرفن ركناه التصوير والتغني:

إذا ما كان الشعر - كما سبقت الإشارة عماده التصوير والوصف فإن ذلك التصوير اللساني لما يقوم في النفس الشاعرة من دقيق الفكر وصادق الشعور إنما أداة تلقيه التغنّي ، ومن ثَمّ لا يكون الشعر مكتملا إذا ما تلقاه المرءُ من كتاب إلى كتاب لا يصافح إيقاع نغمه الآذان والقلوب ، فإنّ كثيرا من لطائف معانيه الشاعرة كامن في أنغامه ، وأنغام أهل البادية به أصفى وأفصح عن خبيء معانيه ، وأهل العلم به أنفذ إلى مكنونه من غيرهم ، فالشعر لا يستثمر ما فيه إذا لم تكن مشافهة أهل الخبرة بالتغني به والبصر بمكامن لطائفه .

❖❖❖

مجمل القول في هذا أنّ ما ذكره " ابن سلام " من وجوه خيرية الشعر التي يفتقدها الكلام المؤلف المعقود بالقوافي مصنوعًا مفتعلا وموضوعًا هي وجوه راجعة إلى رسالته التثقيفية الإمتاعية المستمدة من جوهره ، وكأنّ استبانة رسالته تحمل شيئًا من

استبانة جوهره ؛ لأنّ رسالة كلّ شيءٍ من جوهره ، ولمّا كان جوهره الفاصل بينه وبين ما عداه من ضروب البيان العالي ، مما لا تمكن الإحاطة بل فضلا عن إمكان الإبانة عنه كان لا محيد عن تلمس ذلك في آثاره ورسالته .

وإذا ما كانت هذه الوجوه تفتقد فيما ليس بشعر، فيعرف بوجودها في ضربٍ من ضروب البيان أنه الشعر .

وقد سبقت الإشارة إلى أنّ أحد الشعراء المحدثين والحداثيين قد انتهى إلى مثل ذلك إذ قال :

« إنني لا أعرف ما هو الشعر . ولكنني بقدر ما أجهل هذه الماهية أعرف تمام المعرفة ما ليس شعرا . »

وإذا ما كان " ابن سلاّمٍ " قد عمد إلى إبراز السمات السلبيّة التي لا تكون في الشعر إحساسًا منه بفطرته وثقافته بأنّ ما كان إيجابيًا من سمات الشعر الإبانة عنه داخلة فيما لا تكاد تحيط به العبارة وإناّ لنرى هذا قائما في النعوت التي جاءت على لسانه لكثير من الشعراء الذين اختارهم وأنزلهم في طبقاتهم .

من نحو قوله في امرئ القيس :

سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ،واستحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء : استيقاف صحبه، والتبكاء في الديار ،ورقة النسيب ،وقرب المأخذ ،وأجاد في التشبيه ،وفصل بين النسيب وبين المعنى، كان أحسن أهل طبقته تشبيها (1)

وقولهم في النابغة كان أحسنهم ديباجة شعر ،وأكثرهم رونق كلام ،وأجزلهم بيتًا ، كأنّ شعره كلام ليس فيه تكلف (2)

(1) طبقات فحول الشعراء ج١ ص ٥٥
(2) السابق : ١ص ٥٦

وقول عمر بن الخطاب في زهير: كان لا يعظل بين الكلام ،ولا يتبع وحشيه ،ولا يمدح الرجل إلا بما فيه

وقولهم فيه: كان أحصفهم شعرًا وأبعدهم من سخف ،وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق، واشدهم مبالغة في المدح ،واكثرهم أمثالا في شعره (1)

وقولهم في الأعشى: اكثرهم عروضًا ،واذهبهم في فنون الشعر واكثرهم طويلة جيدة ،وأكثرهم مدحا وهجاء وفخراووصفا. (2)

وقوله في الحطيئة: كان متين الشعرشرود القافية (3)

وقوله في الشمّاخ: كان شديد متون الشعر، أشدّ كلام من لبيد ،وفيه كزازة ،ولبيد أسهل منه منطقا (4)

وقوله في لبيد بن ربيعة: كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام (5)

وقول بشار في جرير: كان جرير يُحسنه ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق)(6)

وقوله: "وأهل البادية والشعراء بشعرجريرأعجب" (7)

وقول الفرزدق في جرير: " إني وإياه نغترف من بحر واحد ،وتضطرب دلاؤه عند طول النّهْزِ" (8)

---

(1) السابق ج1 ص63-64
(2) السابق ج1ص 65
(3) السابق ج1ص 104
(4) السابق ج 1ص 132
(5) السابق ج1 ص 135
(6) السابق ج2 ص 374
(7) السابق ج 2 ص 375
(8) السابق ج 2ص377

وقول الأخطل في الفرزدق وجرير: " الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر ،»[1]

وقول ابن سلام " كان البعيثُ شاعرًا فاخر الكلام حرّ اللفظ"[2]

وقوله :" وكان القطامي شاعرا فحلا رقيق الحواشي حلو الشعر ،والأخطل أبعد منه ذكرا وامتن شعرا)[3]

هذا وغيره يكشف لنا عن بعض السمات الإيجابية للشعر والشعراء عنده والتي يمكن ان نوجزها في النعوت الآتية

- وفرة الطبع
- وصدق الرؤية ، والشعور
- ومتانةِ النسّج
- وطلاقة الخيال
- وصنعة الصورة
- وانسياب النغم
- وتنوع الاقتدار عليه
- واشتماله على ما هو جديرٌ بأنْ يكتنزَ في النفوسِ من مثلٍ يحملُ فيضًا من الخبرة والثقافة ومدح بعليّ الصفات ،والهجو بدنيئها

وغير ذلك .

([1]) السابق ج ٢ ص ٤٧٤

([2]) السابق :ج ٢ص ٥٣٥

([3]) السابق : ج٢ص٥٣٥

المجال الثاني : مبني الشعر إبداعًا وتذوقًا

من القضايا النقدية الرئيسة التي جاءنا بها "ابن سلاّمٍ" قضية بناء الشعر في إبداعه وتذوقه على الصنعة والثقافة، وهي قضية ما تزال مناط مباحثة ومناقدة ، مما يجعل النظر في مقالة " ابن سلاّمٍ" فيها أمرًا نافعًا ،وأدنى نفعه الوقوف على ما قام في التفكير النقدي لدى أسلافنا الذي لم يعكر صفاءه شوب عجمة .

يقول" ابن سلاّمٍ"

" وللشعر صِناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف الصناعات : منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان "([1])

مقالته هذه ذات أصلٌ عظيمٌ في الإعانة على تلمس جوهر الشعر عنده ، مثلما هي أصلٌ عظيم في تقرير أنّ العلم بالشعر ليس مجرد انطباع نفسيٍّ وتذوقٍ مبهمٍ للشعر بل هو علمٌ مؤسَّسٌ على أُصول وضوابطَ .

إذا ما كان الشعر في بُعده الإبداعي وبُعده النقدي صناعة وثقافة فهذا يعنى أنّ ما يحقق جوهر الشعرية في البيان وينقله من كونه بيانا عاما إلى كونه شعرا ليس أمرا يأتي به الشاعر وفق الخاطر دونما تثقيف وتجريب وممارسة ومناقدة ذاتية تسعى إلى تحقيق مثال فني رفيع المنزل شريف المنصب .

هذه الصناعة المرفودة بالثقافة لن تكون بارزة معالمها بروزا تَجَاوُرِيًا بحيث يملك كل ذي يد أن يشير إليها ؛ وإنما معالمها

([1]) السابق ج١ ص ٥

متمترجة تستعلِي على التفاصل والتمايز ،ومن ثم لا يلمحها إلا أهل العلم النافذ في الحقائق من أنّه العلْمُ المؤسّسُه صناعةٌ مرفودةٌ بثقافةٍ عريضةٍ عميقةٍ متنوعةٍ متكاثرةٍ لا تعرف التحديد والسطحية .

وإذا ما كان للشعر صناعة ، فشأن كل صناعة تقوم على العرفان النافذ في حقيقة ما يصنع ورسالته ، ومن قبل ذلك على عرفان بالغ بما يكون منه المصنوع وعلائق بعضه ببعض ،وهذا لابد أن يبذل فيه الشاعرُ ما يملك ، فيستفرغ الجهد ، ولا يستبقي في القوس منزعًا ، وإلا كانت خيانة إبداعة .

هذه الصناعة إذن ترفدها وتتخذ منها موقفًا ثقافةٌ متسعةُ الأقطار عميقة الأغوار نافذة في الكون الإنساني للشاعر شعورا وتفكيرا وتخيلا وتصورا وتصويرا وتغنيا .

ثقافة الشاعر موقفٌ رافد ٌالصنعةَ عنده ، وليست قسيما للصناعة ، هي موقفُ التثقيفِ لما منه تكون الصناعة ، ولما به تكون الصناعة . وبغير هذه الثقافة لا تتحقق الصنعة التي هي محققة للشعر جوهره .

ولهذا تجد "ابن سلام" يشبه الصناعة الشعرية بسائر أصناف الصناعات .

وهنا يبين لنا ما تتلاقى فيه صناعة الشعر بسائر الصناعات ، فإذا مناط التلاقي إنما هو التثقيف ، فيقول :

ومنها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الأذن .... إلخ .

قد يحسب العَجِلُ أنّ العين واليد واللسان أدوات تثقيف وتقويم عِوَج .

هذا غيرُ دقيقٍ بل غيرُ مراد "ابن سلام" فيما أزعمُ .

هي أدوات علمِ ثقافةِ كلّ صنعةٍ ، فمن الصناعات ما تعلمُ ثقافتَه العينُ ، أي تعلم العين صنعَه صنعًا مثقّفًا ، ومنها ما تعلمُ ثقافتَه الأذنُ ،ومنها ما يعلمُ ثقافتَه اللسانُ ، فالتثقيف نعت للصنعة الذي تعلمه العين.... إلخ

لتنظر قوله : " من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره(...). وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيّدة الشَّطبِ، نقيّة الثّغر ،حسنة العين والأنف ،جيّدة النُّهود ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون في هذه الصفة بمئة دينار وبمئتي دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر، ولا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة .....الخ (1)

فهذا دال دلالة بينة على أنّ عين الخبير هي التي تعلم ما في صنعة الشيء من تثقيف ، وليست العين أوِ اليد أو اللسان هي أداةُ التثقيف .

ويضرب لنا مثلا قريبا من الشعر :

" ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء : إنّه لنديّ الحَلقِ طلّ الصوت ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر بهذه الصفة وبينهما بون بعيد .

<u>يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلا صفة ينتهي إليها، ولا علم يوقف عليه .</u>

إن كثرة المدارسة لتعدي على العلم "

بأنّ لنا أنّ من وراء المحسوس أمورًا لا يدركُها الحِسُّ هي القائمةُ بجوهر الحقيقة ، وليس ما يدركه الحسُّ ، وإن كانت هذه

---

(1) طبقات فحول الشعراء ج1ص 5-6

الحقيقة قائمةً فيما يدركه الحسُّ ، فهو كوعائها وبنائها وظرفها ومحيطها لا ينفذ إليها إلا منه ولا يطلعُ عليها إلا من خلاله . ثم يقول " فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به "

الشكل الخارجي ليس هو جوهر الحقيقة التي بها يكون البيان شعرا ، ومن وقف عنده ولم يلجه باحثا عن الجوهر، فليس من أهل العلم بالشعر ، وفي هذا إشارة منه إلى ما ينبغي أن يكون أعظم اهتمامنا في البحث عنه في الشعر ، فكلّ مكوّن لسانيّ من مكونات الشعر أو مكنون عقليّ لا يكون موصلا إلى عرفان جوهر الحقيقة يكون الاشتغال به خارجا عن الاشتغال بالشعر أو الاشتغال بما به يكون البيان شعرا .

لن يتحقق لك الوقوف على جوهر الحقيقة إلا بالمعاينة ،والمعاينة هنا لا تعني النظر لما هو خارجي بل تعني نفاذ البصيرة فيما وراء ما هو المدرك بالحس والعقل القريب الظاهر الذي يتلاقى عليه كل العقلاء من أبناء آدم عليه السلام .

المعاينة عمل لا يقتدر عليه إلا أهل العلم بالشعر ، لا يقتدر عليه من زاده اللغة وحدها أو التاريخ وحده أو غير ذلك من العلوم .

المعاينة عمل من وراء تلك العلوم وهو منها ، هو روح اجتماعها وتكاملها وتفاعلها ثم من بعد ذلك كله طبع صحيح وذكاء مُنْضِجٌ ما يوقد عليه وقلب واع وإحساس مرهف وبصيرة نافذة .

تلك هي مقومات المعاينة المطّلعة على جوهر الحقيقة الشعرية في الكلمة الشاعرة .

وهذا الذي يستلهم من قوله :« وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم » هو المتجاوب مع ما كان مستلهما من قوله :

« وليس بشعر إنما هو كلام معقود بقواف »

ومقرر حقيقة كلية رئيسة :

ليس الشعر بمفرداته ومعانيه العقلية وعلائق مفرداته وأوزانه وقوافيه فهذه وإن كانت منه فإنّه ليس منها الشعر وحده .

الشعرُ لا يعرف بتلك المتعينات التي يتلاقي على منعطفاتها كثيرٌ من النّاس

إنما يعرف بما لا يطلع عليه إلا خبير به عليم بجوهره فإنّ كلّ جميل ولاسيما جميل البيان لن يعرف بما تدركه الحواس وصفا ووزنا وحجما ، ولهذا تجد "ابن سلام" يبسط القول في هذا من بعد أن يبين أنّ الصّناعة والثقافة التي للشّعر والتي تحقّقُ له جوهرَ حقيقته كسائر أصناف العلم والصناعات



فإذا ما كان هذا فإن " ابن سلام" يسبق إلى أن يصرف البصائر عن حسبان أن الشعر : قول موزون مقفى ذو معنى فحسب ، ويلفت إلى أن من وراء ذلك حقيقة قد لا تلمسها المُدْرِكات الموضوعيّة المتعيّنة ،ولكن تدركها النفوس الأذواق والبصائر النافذة فيما وراء المحسوس والمعقول .

وهذا يحجز الناظرين في التفكير النقدي عند أسلافنا من المسارعة في الأخذ بظاهر مقالة " قدامة بن جعفر :

« إنّ أوّل ما يحتاج إليه في شرح هذا الأمر معرفة حدّ الشعر الجائز عمّا ليس بشعر ،وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ،ولا أوجز مع تمام الدّلالة من أن يقال فيه : إنّه قول موزون مقفى يدلّ على معنى »(١)

---

(١)- نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق: عبد المنعم خفاجي ص٦٤ – ط: ١٤٠٠ مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة

أو قول "ابن طباطبا" : « كلامٌ منظومٌ بائن عن المنثورِ الذي يستعمله النّاس في مخاطباتهم بما خصّ به من النظم »[1]

فيحسبون أنهم إنما يدخلون في الشعر كل قول موزون مقفّى ،وانّ هذا أصل تقوم عليه شعرية البيان في العربية ،وأنّه الممثل لمفهوم الشعر عند نقادنا العرب ، ثُمّ تصب من فوق رؤوسهم التثريب والمعابة والتجهيل .

العربي قديمًا يدرك أن جوهر الشعر ليس في وزنه وقافيته ،وإن كانا من أركان بنيته السّاكنها ذلك الجوهرُ والحاملته والمتزجُ بها امتزاج الروح بالجسد.

فمن النافلة أن نشير إلى مقالة سيدنا حسان بن ثابت حين جاءه ابنه" عبد الرحمن" يبكي ،ويقول : "لسعني طائرٌ"

فقال "حسان" : "صفه يا بُنيّ"

فقال : "كأنّه ملتفٌ فِي بُرْدَيْ حِبَرَة" وكان لسعه "زنبور"

فقال "حسّان" : "قال ابني الشعر ،وربِّ الكعبة"[2]

على الرغم من أنّ ما قاله " عبد الرحمن" ليس بموزن ولا مقفى ، وأقسم "حسان" بربّ الكعبة أنّ ابنه قال الشعر ، فدلّ على أنّ جوهر الشعر ليس في الوزن والقافية بل في أمر من وراء ذلك.

يقول " عبد القاهر" : « أفلا تراه جعل هذا التشبيه مما يستدلّ به على مقدار قوة الطبع ويجعل عيارًا في الفرق بين الذهن المستعد للشعر وغير المستعد له .وسرّه ذلك من ابنه ،كما سره نفس الشعر حين قال في وقتٍ آخر :

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا تح: زغلول سلام :١٧- ط: ١٩٨٠- الاسكندرية .

(٢) أسرار البلاغة – تح:شاكر :١٩١

اللهُ يعلمُ أنّي كنتُ منتبِذًا
في دار "حسان" أصطادُ اليعاسيبا "([1])

فجعل " عبد القاهر " قوة الطبع في الوصف هو جوهر الشعر وليس الوزن والقافية ، ولذلك تراه يقرن بين مقالة " عبد الرحمن " الأولى ، وبيت الشعر ، ويبين أنهما معا كانا مصدر سرور " حسان " بشاعرية " عبد الرحمن "

مثل ذلك هو الجدير بالنظر فيه واعتداده ممثلا للتفكير النقدي في قضية جوهر الشعر ومفهومه ، ومثل هذا يدفع فرية أن نقادنا الأسلاف قد اقتاتوا فتات موائد الأعاجم في نقد الشعر والوقوف على جوهره وحقيقته ومفهومه

ما كان لهم أن يزعموا أنّ سيدنا " حسان " قد اطلع على ماجاء من بعد عن العرب ، ولذلك يعرضون عن باطن مقالته إلى ظاهر مقالة " قدامة " لما يجدون في ظاهر مثلها بابًا يقذفون منه الأسلاف بمعابات كيما تنفر الناشئة عما جاء في إثرث الأجداد ([2]).

([1]) الأسرار : السابق

([2]) حسن النظر في كتاب قدامة يقضي بتأويل عنايته ببيان أن من الكلام ما هو موزون مقفى وليس بذي معنى ، يقول :(وقولنا : " يدل على معنى" يفصلُ ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى) (ص ٦٤) فلا يصح أن يقال إن الموزون المقفى الذي لايدل على معنى عنده هو الكلام الخواء من كل معنى عقلي ، فذلك لا يصدر من ذي عقل البتة ، فالمعنى المنفي هنا ليس المعنى العقلي الأجرد ، بل هو المعنى الذي معدنه الشعر وحده ،

وكذلك يحسن الاعتناء بما قام من بيانِه نعوتَ الأغراض والمعاني وعلاقة المعاني بالأوزان والقوافي ائتلافا واختلافا .

فلو أن الوزن والقافية والمعنى الأجرد يكفي ليكون القول شعرًا ، فما باله يشتغل بائتلاف مكونات الشعر بعضها ببعض ، ألا يكفي أن يتحقق الوزن والقافية والمعنى العقلي الأجرد ؟ ⬅

والذي يتبصر المأثور من مقالات السلف فيما قبل عصر التدوين من مقولات ناقدة صنعة الشعر ، لايجد فيها غلبة المناقدة في باب الوزن والقافية على المناقدة في باب التصوير والتخييل ، فلو كان الشعر عندهم مقالا ذا وزن وقافية لكان كل متكلم في عصره أهلا لن يكون شاعرًا(١)ولما كانت العرب بالحكيمة إذ تهنّيءُ بميلاد شاعر ، وليس الميلاد ميلاد جسد من رحم أنثى بل ميلاده في ميدان فحولة البيان المعادلة عندهم ميلاد الفارس في ميدان النزال .



وإذا ما رجع بنا القول إلى ابن سلام فإنّك تدرك أن الغالب فيما نعت به الشعراء ليس مرجعه إلى الوزن والقافية والمعاني العقلية بل الغالب مرجعه إلى التصوير صنعة وتثقيفا ،وقد سبق أن جمعت

➡ أمّا أنه ذكر الوزن والقافية في تعريف الشعر فذلك التفات منه إلى أقرب ما يدركه المستمع منه ، فأول ما يلقاك منه فتدرك أنك إزاء بيان غير نثير هو الوزن والقافية ،وهذا ما يتلاقى على قرب إدراكه كثير من الناس أمّا عنصر التخييل والتصوير فذلك لا يدرك إلا من بعد تذوق ،ولا يدركه كل سامع ،وليس الناس فيه من بعد بالمتقاربين ، ثُمّ إن التخييل والتصوير يقوم في النثر الفنيّ أيضًا ،ولذلك ترى الفلاسفة المسلمين يؤكدون الفرق بين الأقوال الشعرية والشعر في الوزن في كافة الألسنة والوزن والقافية في لسان العربية ،وعلى ذلك كل شعرعربي هو قول شعري موزون مقفى ،وقولهم قول شعري يعني قيامه من تخييل وتصوير .
أترى " قدامة" يجهل ذلك أو يتجاهله ؟!!!

(١) قد صَحَّ الذي جاء به " ابن قتيبة" من قوله :" قلّ احدٌ له أدنى مُسكةٍ من أدب ، وله أدنى حظّ من طبع إلا وقد قال ممن الشعر شيئًا ...)(الشعر والشعراء لابن قتيبة –تح : أحمد شاكر ج ١ ص ٦٨) وقد صدقته المشاهدة فغير قليل من طلاب علم العربية الجادين في عصرنا له من قِيَل الشعر نصيبٌ ،ولكنه لايعد شاعرًا لمجرد أن قال أبياتا أومقطوعات متباعدة .

لك نزيرًا من ذلك ، فأنت ترى فيه أنّ الشاعر هومن كان أحسن تشبيها و ديباجة شعر ،وأكثر رونق كلام ،ولا يعاظل بين الكلام وكان أجمع لكثير من المعنى في قليل من المنطق، وأشدّ مبالغة في المدح ، "واذهب في فنون الشعر ، و" كان شديد متون الشعر رقيق حواشي الكلام ،فاخر الكلام ، حرّ اللفظ ، رقيق الحواشي ،شديد أسر الشعر ، حلوه

كلّ هذا وإن لم يجتمع في شاعر ، فإنّ كلّ سمة منه آية بينة على ما به يكون البيان شعرًا ،وهي كما ترى مرجع أكثرها إلى التخييل والتصوير والتنغيم الذي هو جوهر الكلمة الشاعرة .

المجال الثالث : سمات الفحولة

قارئ الطبقات يتوافد عليه جمهرة من المصطلحات التي استخدمها ابن سلام ،وهي ألفاظ جرت في ألسنة سابقيه ،وطرقت آذان العلماء والشعراء ، فلم تستوقف، ولم تنفَ من ملفوظهم ومسموعهم ،بل تجاوزت طور الاسمية الذي يجعل لها خصوصية الإبانة في لسان ناطقها إلى طور الاصطلاح الذي يكسبها اتساع الدِّلالة وتحدّد المدلول كما هو الشأن في ألفاظ المصطلحات .
وهذه الكلمات التي غدت مصطلحات منها ما يتعلق بتوثيق النصّ ، وتاريخه ،ومنها ما يؤول إلى تذوقه وفقهه وتقويمه ،وهذا الأخير هو الذي به نُعْنَى ،وهو الذي بملْكِك أن تستخلص منه بالتأمل بعض سمات الشعر الدالة على جوهره عند ابن سلام .



أول ما يلقاك من كتاب ابن سلام عنوانه :«طبقات فحول الشعراء » وفي عناوين الكتب مفاتح أبوابها فهي من الاستهلال الحميد .

= مصطلح الفحولة :

ورثه ابن سلام عن أسلافه وأقربهم إليه أستاذه عبد الملك بن قُريب الأصمعي (١٢٢-٢١٣) فإنّ له رسالة نقدية منشورة(فحولة الشعراء)(١).

---

(١) رسالة فحول الشعراء أعلمُ أنّ لها طبعتين لطلعت عليهما : الأولى طبعت المستشرق " يشارلس توري (١٨٦٤- ١٩٤٨م) ،وقد نشرها أولا في مجلة جمعية المستشرقين الألمان المجلد الخامس والستين سنة ١٩١١م كما يقول الدكتور صلاح الدين المُنجّد ، وقد اعتمد (توريّ) على نسخة خطية في جامعة ييل عن أصل محفوظ بدمشق وقد اعاد نشرهذه الطبعة المحققة←

وكلام الأصمعيّ فيها ، وفيما روي عنه في غيرها ،وإن كان يمكن أن تبصر من خلاله السمات العليا للشعر عند ه ، وتبصر الضوابط والقواعد التي ينطلق منها في الحكم بالفحولة لشاعر دون آخر ، فإنّ ابن سلام – لا ريب – – علِيٌّ في هذا

ولست هنا بصدد الموازنة بين مفهوم الفحولة وأركانها بين الأصمعي وتلميذه ابن سلام – وإن كان هذا مُهِمًّا في نفسه – بل بصدد النظر في هذا عند ابن سلام .

وأول ما يلقاك من أمر هذا المصطلح عنده أنّه يتسم بأمرين رئيسين :

الأول الغموض

والآخر : تعددالسمات التي بها يكون الشاعر فحلا .

ابن سلام كان معنيا بأمرين مترادفين على لسانه بشأن الحكم بالفحولة :

الأول : جودة المقول الشعري من جهة

والآخر : كثرته .

وهي كثرة ذات جوانب عدة :

➔ الدكتور المنجد سنة١٣٨٩ ، وفي سمنة (١٣٧٢) نشر الأستاذان: عبد المنعم خفاجي وطه الزيني من علماء كلية اللغة العربية بالأزهر الرسالة عن نسختين خطيتين الأولى في مكتبة الأزهر ،والأخرى منسوخة منها في المكتبة التيمورية ، ولم يذكرا طبعة المستشرق (توري) وفي قولهما :(فعقدنا العزم على نشر الكتاب نشرًا جديدا) (ص ٣) ما يومئ إلى علمهما بنشرة (توري) والمُنجدُ لم يشر إلى طبعة الخفاجي والزينيّ ، كما أنّه لم يترجم لنا تقديم (توري) واكتفى بإيردها بلسان المستشرق الأعجمي ،

وتبقى الرسالة مناط نظر في وثاقة نسبة نصها إلى الأصمعي.، فإنما هي منقولة مشافهة رواها ابن دريد عن السِجْزيّ عن الأصمعي على سبيل المحاورة والمساءلة .

كثرة طول النفس في القصيدة الواحدة.
وكثرة تعدد القصائد الجياد من جهة ثانية.
وكثرة تعدد الأغراض من جهة ثالثة.
وكثرة تعدد العروض من جهة رابعة
فالكثرة عنده ذات مجالات عدة، ولعله متأثر في الأخذ بمبدأ الكثرة بشيخه الأصمعي، فقد قال في "الحويدرة": " لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته – يعني العينية – كان فحلا
وقال مثل هذا في المهلهل، وفي ثعلبة بن صغير المازني، وفي معقر بن جمار البارقي حليف بني نمير، وفي أوس بن غلفاء، وفي سلامة بن جَندل. ([1])
وهذا ما تراه من ابن سلام حين قال عند شعراء جعلهم طبقة دون غيرها كما في الطبقة السابعة من الجاهليين: « في أشعارهم قلة، وذلك الذي أخرهم »، وما جعل طرفة وعبيد وعلقمة وعدي في الرابعة إلا قلة ما بأيدي النّاس من أشعارهم، ولولا تلك القلة لقدمهم، والأسود بن يعفر لو قال أخرى مع فريدته لقدم على مرتبته.

وهذا الاعتداد بكثرة ما جاد من القول الشعري وتنوعه مرده إلى تمكُّن الشاعر في الإبداع، فإنّ الشاعرَ القائل واحدة كريمة لا تدل فريدته هذه على تمكنه في إبداع الشعر، فمن آيات التمكن استمرار العطاء.

الكثرة في نفسها آية على رسوخ الملكة والدربة الإبداعية، وهذه الدُربة تمكّنه من حسن التصريف التصويري لمعانيه ومغانيه،

([1]) فحولة الشعراء للأصمعي – تح(توريّ) ص ١٥،١٤،١٢ و الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني : ص٧٣- المطبعة السلفية ١٣٨٥

وتمنحه اقتدارا على أنْ يلجَ فنون القول الشعريّ المديدة الرغيبة ، وفي صدرها فنّي المدح والهجاء ، فإنهما من أدلّ الأغراض على الاقتدار التصويريّ لدى الشاعر ؛لأنهما في حقيقتهما من معدن الوصف الذي هو جرثومة الأغراض الشعرية ، ولا تكاد تجد غرضا شعريا قريبا أو بعيدا إلا كان منسولا من غرض الوصف بمعناه الوسيع الفسيح .

والوصف مدحا أو هجاء يقيم الشاعر تحت سلطة عامل نفسي قد يمثل محكًا لصدق شاعريته :

عامل الرغبة مدحا وعامل النفرة هجاء ، والمرء قد تبلغ به الرغبة أو النفرة مبلغا يلقي به فيما لا يُعينه على أن يملك ناصية الإجادة في القول الشعري إفراطا أوتفريطا .(1)

ومنِ هنا نفهم وجها من مقالة سيدنا عمر رضي الله عنه في زهير الذي هو عنده أشعر الشعراء: « كان لا يعاظل بين الكلام ،ولا يتتابع وحشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه »(2)

مقالة عمر في "زهير" ناظرة إلى جانبين :

الأول : جانب تصوير المعنى

والآخر: التجربة والمضمون

،فالصورة مفرداتها وصياغتها ذات تميز ،فهو المتحامى معرة المعاظلة التركيبية ،والمعاظلة الدلالية، وهو المتحامي وحشية

---

(1) يحكي " حمَّادُ الراوية " قال : أتيتُ الفرزدق ، فأنشدني ، ثمَّ قال : هل أتيت الكلب جريرًا ؟ قلت نعم . فقال : أنا أشعر أم هو ؟ فقلت : أنت في بعْض الأمر ،وهو في بعض . فقال: لم تناصحني . فقلتُ : هو أشعر إذا أرخي من خناقه ،وأنت أشعر منه إذا رجوت أو خفت . فقال: وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء " (تجريد الأغاني لابن واصل الحموي ج٣ص٩١٨

(2) – طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٦٣

الكلمات فإن في اختيارها وتصيدها أمارة على توحش نفسي قائم بالشاعر، فالشعر مرآة نفس الشاعر لا محالة.

والتجربة والمضمون قائمان على الصدق الفني الظاهر في مدح الرجل بما فيه، فزهير وهو واقع تحت سلطان الرغبة مدحا مالك لزمام نفسه، لا يتغافل عن الحق الذي يبصر.

والمدح بما يكون في الممدوح لا يعنى المباشرة والسطحية والفقر الخيالي، فذلك مقتلة القصيد، وإنما يعنى أنه حين يبلغ في الوصف مدحا متنهاه إنما ينطلق من واقع أدركته بصيرة الشاعر النافذة في أغوار الأشياء، تشعر بما لا يشعر به غيرها.

ومن ثمّ كان مما فضّل به أهل النظر "زهيرا" أنه كان " أشدهم مبالغة في المدح" ([1])، وهذا لا يتعاند مع ما جاء عن " الفاروق " – رَضِي الله عنه – من أنّه لا يمدح الرجلِ إلا بما فيه، وإن ذهب إلى تلك المناقضة " ابنُ رشيقٍ " قائلا:

« وإذا قوبل آخرُ كلام " عمرْ" بآخر هذا الكلام تناقض قول المؤلف – أعني ابن سلاّم – لأنّ " عمرّ" إنّما وصفه بالحذق في صناعته، والصدق في منطقه؛ لأنّه لا يحسن في صناعة الشعرِ أن يُعطَى الرجلُ فوق حقّه من المدح؛ لئلاّ يخرج الأمر إلى التنقّص والازراء..."([2])

([1]) طبقات فحول الشعراء: ج1 ص 64

([2]) العمدة لابن رشيق ج 1 ص 98 – تحقيق: محمد محيي الدين – ط: دار الجيل – بيروت 1401

وهذا من " ابن رشيق " تجاوزٌ ، فابنُ سلامٍ لم يذهبْ كما يقول " أبو فهرٍ " إلى المبالغة الذّميمة بل أراد الاجتهادَ في تصحيحِ معنى المدحِ وتوفية حقِّه "(1)

المبالغةُ في المدح إنما هي موقفٌ شعريٌ مؤسّسٌ على رؤيةٍ شاعرةٍ نافذةٍ ، وماهي إلا انتهاءٌ في الوصف إلى المدى البعيدِ الذي لا يُبصرُ كثيرٌ أقطارَه وآمادَه .

والإبلاغُ في الوصفِ مدحًا آيةٌ بيِّنةٌ على تمكُّن الشاعرِ وفحولَتِه ، وكذلك الشأنُ في عديله الهجاء.

من هنا نجد عناية "ابن سلام" بهذين الغرضين من أغراض القول الشعري .

وهذا ما نجد صداه أيضًا عند كثيرٍ مِنْ خلفِه من أهلِ العلمِ بالشعرِ ، كمثل ما تراه في مقالة المرزِباني في الموشّح:

" قيل للبطين : أكان ذو الرمة شاعرا مقدما ؟

فقال البطين: أجمع العلماء بالشعر على أن الشعر وضع على أربعة أركان : مدحٍ رافعٍ، أو هجاءٍ واضعٍ ، أو تشبيهٍ مصيبٍ ، أو فخرٍ سامقٍ ، وهذا كلُّه مجموعٌ في جرير والفرزدق والأخطل ، فأمّا ذو الرمة فما أحسنَ قطُّ أن يهجوَ ، ولا أحسن أن يفخرَ ، يقع في هذا كلِّه دونا ، وإنما يُحسنُ التشبيهَ ، فهو ربعُ شاعرٍ)(2)

إن جعلنا التشبيه هنا نهجا من أنهاج التصوير الشعري فإنه يخالفُ الثلاثة المجموع إليها (المدح والهجاء والفخر) .وإن جعلناه في معناه الأوسع الوصف للكون والحياة ، والمدحُ والهجاءُ والفخرُ هو الوصف للإنسان بناء على أنّ مجالات القول الشعري

---

(1) طبقات فحول الشعراء (هامش رقم (٤) ج١ ص ٦٤

(2) الموشح للمرزبانيّ : ص ١٥٦-١٥٧

منبثقة من التصوُّرِ الشعريّ للكون والحياة والإنسان ،وأساسُ القولِ الشعريّ الوصف ُوالتصويرُ ، فإنّ كان ذلك الوصفُ والتصويرُ متعلقا بالإنسان فهو مدحٌ أو هجاءٌ أو فخرُ، وإن كان متعلقا بغيره فهو ما عدا الثلاثة ، فكانت تسمية هذا الغرض التشبيه تسمية قريبة من الواقع الإبداعي شريطة ألا يحصر التشبيه في مدلوله الاصطلاحي عند البلاغيين ،بل يفهم على أنه الوصف والتصوير للكون والحياة مما عدا الإنسان ،وفي جعل التشبيه بهذا المعنى ربع أركان الشعر مَظْلَمَةٌ لذي الرُّمّة وأضرابِه ممن تسامت بهم شاعريتُهم عن أن تنفق في وصف من كان له مثلا، بل رأى الكون والحياة أولى بأن تشغل شاعريته لما فيهما من عون على تحقيق الصدق الفني الذي هو معدن الشاعرية حين يملك الشاعرلغته امتلاك عليم قدير.

المهم أنّ البطين ليس مفردا في نفي ذا الرمة عن مقام الفحولة لاستهلاكه شاعريته في التشبيه ،وانتفائه عن مقام المدح والهجاء والفخر فإن " الفرزدق " على ذلك حين بيّن لذي الرُّمّة وجه نفيه عن الفحولة : (مرّ الفرزدق بذي الرّمّة ،وهو ينشد :

أمنزلتي ميّ ،سلام عليكما ❖ هل الأزمن اللائي مضين رواجع

فوقف حتى فرغ منها ، فقال : كيف ترى يا أبا فراس ؟ قال : أرى خيرا . قال : فما لِي لا أعدّ في الفحول ؟

قال : يمنعك عن ذلك صفة الصحاري ،وأبعار الإبل ...)[1]

فهذا دال على أن الفحولة اكتمال موهبة الشعر وآله التصوير لدى الشاعر في مجالات القول الشعري اكتمالا يجعل له تميزا على

([1]) طبقات فحول الشعراء : ج٢ص ٥٥٢

غيره من الشعراء ،ولم يكن ذو الرمة ذا اقتدار في البابين العظيمين من أبواب القول الشعري : المدح والهجاء ،وإن كان له مقامه في باب التشبيه .

وإذاما كان البطين لا يرى ذا الرمة فحلا ، فإن ابن سلام يراه رابع الطبقة الثانية من طبقات فحول الشعراء الإسلاميين مجموعا إلى البعيث والقطامي وكثير ،وكان يراه أحسن الإسلاميين تشبيها ،ومقابلا لامرئ القيس من الجاهليين في باب التشبيه . يقول:

« كان علماؤنا يقولون: أحسن الجاهلية تشبيها امرؤ القيس ،وأحسن أهل الاسلام تشبيها ذو الرمة »[1]

وفي إسناده القول إلى العلماء إلاحَةٌ إلى أنّ ذلك أمرٌ قد تواردت عليه الأذواقُ والعقولُ ، وإن ظُنّ في ظاهر النظر بُعدُ ما بين الشاعرين : امرئ القيسِ وذي الرمّة .

وهذا – أيضًا – يغري بأهمية الموازنة بين منهجي كلّ في التشبيه ،وتبيان ما عليه التقيا وما تميز به كل واحد عن الآخر ،وما تميز به كل عن سائر الشعراء

المهم أنّ ابن سلام كأنّه يري في سموق ذي الرمة في باب التشبيه كافيا أن يقيمه مع الفحول ، فالتشبيه رأس في باب الوصف الذي هو الغرض الرئيس من أغراض القول الشعري .

❖❖❖

ولمّا كانت الفحولة بلوغ الشاعر منزلا في الإبداع لا يطاول ،فيكون في الشعراء كمثل الفحل في وسط الحقاق [2] كان غير خفي أنّ

---

(1) – السّابق ج٢ ص ٥٤٩

(2) الفحل : الذي قد بلغ من الإبل الثامنة ودخل التاسعة فصار بازلا فهو منجب في ضرابه ،والحقاق ما بلغ الثالثة ، فالفرق بينهما بعيد

الشاعر لا يكون فحلا إلا إذا تمرس بفنون الشعر ، واقتدر على أن يكون شعره كريم المُعْتَصر لا ينضب على كثرة المَرْي

ومن ثمّ رأينا من يذهب إلى أن الشيطان لا يكون إلا لفحل أمّا من دونه ، فليس بأهل لأن يصحبه ، يقول "الجاحظ" :

« إنهم يزعمون أنّ مع كلّ فحل من الشعراء شيطانا ، يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر... »(1)

ومبعث ذلك انّه لّما كان الشاعر الفحل آتيا من الشعر بما لم يُعهد، خيّلوا انّ مثل هذا لا يكونُ من تلقاء بشر ،وأنّ من وراء ذلك قوة لا قِبَلَ لهم بها ،ولذلك لم يكن لكلّ شاعرٍ شيطانٌ بل ذلك للفحول .

وليست شياطين الفحول إلا مواهبهم التي بلغت من الاقتدار مبلغًا مدهشًا مبلسًا ،ومن ثمّ كان الفحل لا يغالب إلا من فحل .

◆◆◆

ومن الملفت للنظر انّ النقاد لم يجعلوا من الفحول شاعرة ،وإن تكن الخنساء على قوتها،وبرغم أن النابغة وهو فحل عند جمهرة النقاد قال لها أنت أشعر من بالسوق إلا أن الأصمعي لم يجعلها من الفحول ،وكانّ ما فيها من أنوثة ذات أثرفي شعرها حاجزُها عن أن تدرك مقام الفحولة ،واكتفى ابن سلام بذكرها في شعراء المراثي ،ولم يذكر في شاعريتها كلمة واحدة تُبِين عن منزلتها ، ،ولم يذكر لها إلا ثلاثة أبيات : كل بيت من قصيدة ، ثُم طوى القول (2).

---

(1) الحيوان ج٦ص ٢٢٥

(2) إذا ما نظرت صنيع ابن سلام في طبقة أصحاب المراثي فإنك واجده قد جعلهم من بعد طبقة الجاهليين ، قائلا:

« وصيرنا اصحاب المراثي طبقة بعد العشر الطبقات »

وذكرمنهم أربعة: متمم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة، وكعب بن سعد الغنوي

◄====

وابن سلام ذكر في طبقاته شعراء ليس الظنّ بأنهم فحول من نحو البعيث مثلا فهو المُغَلَّب في الشعر، وإن غَلَّبَ في الخطب ، وكذلك أبو طالب والزبير بن عبد المطلب ، بل شعر قريش عنده فيه لين
وهذا يدفع إلى الظنّ بأن الكتاب ليس بالمقصُور على طبقات الفحول ،وأن كلمة فحول لعلها ليست من عنوان الكتاب .

▶ ==== و لم يبسط القول فيهم خلا (مُتمّم بن نويرة) قال في أول الأمر (أولهم متمّم) ثمّ قال:(والمقدم عندنا متمم... رثى اخاه مالك)
ثم يروى من خبره وخبر أخيه ما ليس بكاشف عن نعت (متمم) في الشاعرية عند ابن سلام فلم يقل فيه إلا قولته :(وبكى متمم مالكا فأكثر وأجاد) وهي قولة وإن كان لها قدرها لكنّها لا تكشف عن مذهب متمم في شعره ومنزلته .
ويستظهر ابو فهر أن قول ابن سلام (والمقدم عندنا متمّم) يعني به أنّه مقدم على أخيه مالك في الشعر ،وكلاهما شاعر)(هامش رقم (٤) ص ٢٠٤ ج١ – الطبقات .
ولكن أترى ذكرا لأخي متمم من قبل قوله (والمقدم عندنا) ثم ما ذا نفعل بقول ابن سلام أولا : وأولهم متمم) والرابع: كعب بن سعد الغنوي : ؟٥
المهم أيمكن أن يقال إنّ في إفراد أصحاب المراثي إشارة أنهم ليسوا بفحول إلا في باب واحد من أبواب الشعر ،وهم فيما عداه ليسوا بفحول
فإذا ما قلنا ذلك ، فكيف نصنع في أفراد شعراء القرى ،ولا يجمعهم إلا ما نشأوا فيه أو توطنوه ، أيكون مثل ذلك جامعا لهم ؟ أو أيكون فيما بينهم ما يجمعهم من سمات الشاعرية ،مما يجعلهم أهلا لأن يذكروا في طبقات الشعراء ،وأن لا يدرجوا في طبقة الجاهليين أو الإسلاميين

المجال الرابع : مفهوم الطبقة وعيار تصنيفها

لقي مصطلح (طبقة) عند ابن سلام مساجلات بين بعض أهل العلم ،وهذا يجعلنا ننظر في أسس تقسم الشعراء طبقات عند ابن سلام وفي مقالات أهل العلم في مفهوم الطبقة عنده وعلاقته بمفهوم الشعر.

في مقدمة الكتاب ذكرأنّه فصّل « الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزلناهم منازلهم واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما قال فيه العلماء.

وقد اختلف الناس والرواة فيهم ، فنظر قومٌ من أهل العلم بالشعر والنفاذ في كلام العرب والعلم بالعربية إذا اختلف الرواة فقالوا بآرائهم ، وقالت العشائر بأهوائها ، ولا يُقنع الناسَ مع ذلك إلا الرواية عمن تقدم .فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا ،فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه ،فوجدناهم عشر طبقات .أربعة رهطٍ كلُّ طبقةٍ متكافئين معتدلين . »[1]

هذا النصُّ ذو أهمية بالغة في تبيان منهاج "ابن سلام" الذي نرغبُ في التماسِ مفهومِ الشعر عنده منه ، ولكنّا نضم إليه كلمة قالها في ختام مقدمته ، قال :

(ثُمّ إنّا اقتصرنا – بعد الفحص والنظر والرّواية عمّن مضى من أهل العلم – إلى رهطٍ أربعةٍ اجتمعوا على أنّهم أشعرُ العرب طبقة

([1]) طبقات فحول الشعراء – تح : شاكر ج١ ص ٤٩-٥٠

، ثُمّ اختلفوا فيهم بعد ، وسنسوق اختلافهم واتفاقهم ، ونسمي الأربعة ونذكر الحجة لكل واحد منهم .
وليس تَبْدِئَتُنا أحدَهم في الكتابِ نحكمُ له ، ولا بدّ من مبتدأ .
ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى . »
يلفتك من هذا أمور:

- أنّه جاعل شعراء الجاهلية والإسلام والمخضرمين في طبقات
- وأنه اقتصر من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا .
- وأنه قد ألف من تشابه شعره منهم إلى نظرائه .
- وأنّه من بعد ما صنع وجد الأربعين عشر طبقات ، فرتّب هذه الطبقات مُنزلا كلّ طبقة منزلها ، ومحتجاً لكلّ بما وجد له من الحجّة وبما قال العلماء بالشعر فيه
- وأنه قد اقتصر بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم على رهط أربعة في كل طبقة . وأن هؤلاء الأربعة في كل طبقة متكافئون معتدلون.([1]) فلم يكن في ترتيب الأربعة في كلّ طبقة حاكما بفضل الأول على الثاني بل هم متكافئون معتدلون في طبقتهم وإن كان من بينهم اختلاف .
- وأنه محتج لمنزل لكل واحد بما كان من شعره .

([1]) طبقات فحول الشعراء ج١ ص ٢٤

- وأنه ذاكر من أبيات كل شاعر ما كان في الحديث والمعنى (1)

تلك سبعة هي المرتكزات الرئيسيّة في مقال "ابن سلام" لابدّ أن نكونَ منها على ذُكر ،ونحن ننظرُ في صنيعه مقسما الشعراء في طبقات منزلا كل شاعر في طبقته كيما يتيسر لنا – إن شاء الله تعالى – تلمس مفهوم الشعر وسماته عنده.

أول ما سيلقاك أن "ابن سلام" ذكر في طبقاته أربعة عشر ومئة شاعر، وأنّه قد جعلهم على النحو التالي :

بدأ بطبقة فحول الجاهلية وانتهى بطبقة فحول الإسلام .

وقد جعل من بين هاتين الطبقتين ثلاث طبقات :

طبقة أصحاب المراثي وطبقة شعراء القرى العربية ،وطبقة شعراء اليهود .

لم يكن صنيعه في هذه الطبقات الثلاث التي جعلها حشوا بين الطبقة الأولى (طبقة فحول الجاهلية) والأخيرة(طبقة فحول الإسلام) كمثل صنيعه في الطبقتين الأولى والأخيرة :

في الأولى ذكر أربعين شاعرا، وفي الأخيرة كذلك ذكر أربعين شاعرا ، وقسم كل طبقة إلى عشر طبقات في كل طبقة أربعة شعراء

---

(1) قوله (في الحديث والمعنى) لا اتبينها من صنيع ابن سلام أتراه قاصدا أنه يذكر من أشعار كل طبقة ما تقارب في المعنى(الغرض) وفي الصنعة (الحديث) ؟ فإنْ صحَّ الحدس ، أفترى ذلك قائما فيما جاء به ابن سلام من أشعارهم ؟ ألا تراها كلمة يستفرغ تبيانها وتقويمها جهدًا رغيبا عصيًا يقطع من أيام العمر غير نزير،

وقد كان من شأن " أبي فهر" التعليق على مثل هذا غير لأنه لم يشأ أن يتحفنا بشئ في ذلك : أتراه من شدة ظهوره عنده ، فظن أنا كمثله ؟

فعدة ما ذكر فيهما معا ثمانون شاعرا .

في الطبقات الثلاث التي جعلها حشو الطبقتين الأولى والأخيرة لم يفعل مثل ما فعل فيهما

= في طبقة المراثي ذكر أربعة شعراء منهم شاعرة واحدة هي الخنساء ، ولم يذكر غيرها من الشواعر في أي طبقة وكان بيانه عنها وجيزًا

= وفي شعراء القرى العربية اثنين وعشرين شاعرا ، جعلهم في أربعة أقسام لأربع قرى (المدينة ومكة والطائف والبحرين) ولم يقسم الشعراء عليها بالسويّة

جعل في شعراء المدينة خمسة ، وفي شعراء مكة تسعة ، ولم يترجم لاثنين منهم ، وجعل شعراء الطائف خمسة ، و لم يترجم لواحد منهم ، وجعل للبحرين ثلاثة .

= وطبقة شعراء اليهود ثمانية .

فمجموع شعراء الطبقات الثلاث التي جعلها حشوا أربعة وثلاثون شاعرا ،ومن أولئك من هوجاهليٌّ ومن هوإسلاميٌّ .

ذلك صنيعه

لعله يشير بجعله شعراء الجاهليين عشر طبقات وكذلك الإسلاميين إلى مكانة شعراء طبقة فحول الجاهلية وفحول الإسلام .

وكأنّي به في صنيعه مع من ذكرهم في الطبقات الحشو بين الأولى والثانية ، قد رأى أنّ كلّ واحدٍ منهم جديرٌ بأن يلج إحدى الطبقتين إلا أنّ المقام يضيق عنهم لما حده بالأربعين في كلٍّ– فحجر به واسعا وظلم فنا – ورأى أنّ لكلّ منهم مزية تقارنه مع آخر ، فآثر أن يصنفهم على النحو الذي ذكرت .

وأنت إذ تنظر – أيضًا – تجد موقفه من الشعراء المخضرمين غير بيِّن المعالم على الرغم من أنّه ذكر في المقدمة أنّه ذاكرٌ الشعراءَ الجاهليين والإسلاميين والمخضرمين ، فيحسب عجلُ إنه جاعل المخضرمين طبقة تعادل طبقة الجاهليين والإسلاميين فيتهم "ابن سلام" بالخلل في صنيعه إذ لم يجعل المخضرمين طبقة مستقلة ، بل ولم يجعلهم جميعا في أحدى الطبقتين: الأولى أو الأخيرة.
كان موقفهم من المخضرمين مختلفا.
ذكر بعضهم في الجاهليين وبعضهم في الإسلاميين وبعضهم في شعراء المراثي وبعضهم في شعراء القرى العربية :
تراه يجعل كعبا والحطيئة في الثانية الجاهلية وهما مخضرمان ، ولم يفعل مع عمرو الباهلي والسحيم الرياحي و أبازيد الطائي ، والأغلب العجلي وهم مخضرمون قولا واحدا ، فكان ظاهر النظر إن يجمعهم إلى كعب والحطيئة في الجاهليين أو يجمع إليهم كعبا والحطيئة في الإسلاميين.
هل لنا أن نظن إنّ من وراء ذلك نظرا فنيا في شعر أولئك المخضرمين ، وأنّه نظر إلى ما هو الغالب على شعر الشاعر المخضرم من اقتراب في السّمات الفنّية ، فإن تكن أقرب إلى حال سمات الجاهليين ، فالشاعر أجدرُ بأن يُعدّ في الجاهليين ، كما فعل مع كعب والحطيئة ، فهما معا من رواة زهير الجاهلي راوية "أوس بن حجر"، وهما معا – أيضا – من تلاميذ مدرسة عبيد الشعر.
هل لنا أن ظن ذاك ظنًا نفتقر إلى سبره واختباره ليُقرر أو ينفى ؟
أو هل لنا أن نظن أنه نظر إلى الحقبة التي كملت فيها شاعرية الشاعر المخضرم :

أكمَلَ فيما سبق البعثة المحمدية وكان شاعرا فحلا من قبل المبعث أم كان يقول الشعر ولم يبلغ بعد منزل الفحول إلا من بعد المبعث ؟ يفتقر الأمر أو نحن نفتقر إلى سبر غور هذا ، فلعلنا ننتهي إلى أمر جليل في بابه يكشف لنا أنّ أساسًا فنيًا من أسس التّصنيف في طبقات يرجع إلى مفهوم للشعر قائم في قلب "ابن سلام" على أساسه تكون الموازنة والمفاضلة .

المهم أن هذا مجال بحث جليل نبيل .(١)

◆◆◆

وهذا الذي أشرت إليه يوجب أن ننظر في تفسير مصطلح (الطبقة) لنتبين من مدلوله أكان التقسيم راجعا إلى معيار فنّي يستكشف منه مفهوم الشعر عند "ابن سلام" أم أن الأمر كان من ورائه مالا يرجع إلى الجانب الفني في أشعار أولئك الشعراء ؟

---

(١) يقول "ابو فهر " في شأن موقف "ابن سلام " من المخضرمين:

« ... ابن سلام فرق المخضرمين بين طبقات شعراء الجاهلية وطبقات شعراء الإسلام (...) فابن سلام لم يكن يعدّ المخضرمين طبقة قائمة بنفسها ، بل نزّل المخضرمين منازلهم من طبقات أهل الجاهلية وطبقات أهل الإسلام ، وألف من تشابه شعره منهم إلى نظرائه (...)

فمن أجل ذلك وضع المخضرمين في حيث رأى من طبقة شعرهم عنده : إما في طبقتهم من أهل الجاهلية ،وإمّا في طبقتهم من أهل الإسلام غير ناظر إلى ترتيب تاريخ مولدهم أو تاريخ وفاتهم ، أو إلى تقدم متقدم وتأخر متأخر .

وهذا الذي فعله ابن سلام أجود في تاريخ الشعر وتاريخ نقده من تقديم المحدثين للشعراء وفق الزمن وتاريخ المولد والوفاة .

وإلغاؤه " طبقة المخضرمين " وإدماجها في طبقة الشعر نفسه دليلٌ على حسن بصر ابن سلام بالنقد وجودة معرفته بالشعر ودليل على أنه نهج لكتابه نهجا يحتاج إلى دراسة دقيقة متقنة يُرجعُ فيها إلى طريقته التي سلكها في وضع كلّ أربعة في طبقة ، وزعمه أنهم " متكافئون معتدلون" . وهذا أمر يتطلب إفاضة ليس هذا مكانها"

مذهب أبي فهر
في تفسير مصطلح الطبقة في كتاب "ابن سلام"

عُني "أبو فهر" بتفسير مصطلح "الطبقة" عناية بالغة شأنه في ما يعرض له ،وهذا يغرينا بالنظر في صنيعه وتفسيره ،وما استند إليه في ذلك التفسير علّنا نأخذُ به أو نرغبُ عنه على هدى من أمرنا غير متعصبين لغير الحق .

فسر "أبو فهر" الطبقة بمعنى المذهب والمنهج الشعري ، وهو يسعى إلى التدليل على صحة ما فسر به هذا المصطلح بأنّ:« مادة "(طبق) تؤول أكثر معانيها في لسان العرب إلى تماثل شيئين إذا وضعت أحدهما على الآخر ساواه وكانا على حذو واحد (...) فسموا مراتب الناس ومنازل بعضهم فوق بعض "طبقات" ، ولما كانت كل مرتبة من المراتب لها حالٌ ومذهبٌ سموا الحال المميزة نفسها "طبقة" فقالوا : "فلانٌ من الدنيا على طبقات شتّى".

وهذا المعنى أشد وضوحا في حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إنّ بني آدم خلقوا على طبقات شتى : منهم من يولد مؤمنا ويحيى مؤمنا ويموت مؤمنا ...»

وهذا - إن شاء الله - بيان مذاهب الناس في حياتهم لا عن مراتبهم ومنازلهم ، فلفظ "طبقة" في هذا الحديث مجازٌ دالٌ على مثل المعنى الذي ذهبت إليه في تفسير نصّ ابن سلام (...)

وقد وقفت طويلا عند قول ابن سلام ،وهو من أغرب ما قرأت :

« ثم إنا اقتصرنا - بعد الفحص والنظر والرواية - إلى رهط أربعة على أنهم أشعر العرب طبقة ثُمّ اختلفوا بعد » ، فوجدته صعبًا أن

يفسر قوله ههنا "طبقة" بما يهجم على الخاطر مما ألفناه نحن من معنى "طبقة"، ولم أجد له إلا معنى واحدا كأنّه هو الذي يعنيه "ابن سلام"، وهو أنّهم أشعرُ العرب في مذهب من مذاهب الشعر أو في نهج من أنهاجه أو في ضرب من ضروبه (...)

ومن أجل ذلك -والكلام لأبي فهر- جاء "ابن سلام" في آخر كلامه عن تأليف كتابه، فقال:

« وليس تبدئتنا أحدهم في الكتاب نحكم له، ولا بد من مبتدأ » فاحترس، ونبّه قارئ كتابه إلى أنّ تقديم شاعر من الأربعة على صاحبه المشابِه مذهبُه لمذهبَه ليس حكما منه على تقديمه بل الأربعة جميعا عنده متكافئون معتدلون؛ لأنّ كلّ واحدٍ منهم رأس في مذهبه ومنهجه، وإنّما جمعهم فيما سماه طبقة لما انتهى هو إليه بعد الفحص والنظِر من تشابه مناهج هؤلاء الأربعة النظراء.

والتشابه هنا عند "ابن سلام" لا يعني التطابق فهذا باطل لا يقبله العقل، وإنّما يعني وجوهًا من الشبه بعينها في المناهج مع اختلاف ظاهر يتميز به كل واحد منهم عن صاحبه.

وبهذا الاختلاف يكون كلٌ منهم رأسًا في هذا المذهب من مذاهب الشعر. »[1]

ذلك ما ذهب إليه "أبو فهر" من تفسير الطبقة بالمذهب والنهج، فمعنى عنوان الكتاب مذاهب فحول الشعراء.

والظنُ أنّ "أبافهر" لايقطع بأنّ "ابن سلام" قد التزم التزاما كاملا بهذا، بل الأساسُ الفنيّ في التصنيف قد يكون الغالب أو الأساس

(١) تقديم شاكر كتاب طبقات فحول الشعراء ج١ ص ٦٥-٦٩ « بتصرف »

الرئيس ، ولكنّه لن يكون أبدًا الأساسَ الأوحد الذي لم يرادفه غيرُه.

وهذا الذي ذهب إليه "أبو فهر" من أنّ الطبقة بمعنى المذهب الفنيّ في إبداع الشعر إنْ صحّ أنّه مرادُ "ابن سلام" من قوله " طبقات" – ولا أخاله يصح في كل طبقة – قد يعين على أن نلتمس منه شيئا من مفهوم الشعر عنده ، لأن تقسيمه الشعراء حين ذاك دالٌّ على أنّ ما يكون من البيان شعرًا لا بدّ أن يتسم بسمات تمثلها طبقات هؤلاء الشعراء ، فتكون السمات الكليّة للبيان الشعريّ.

ولعلّ "ابن سلام" بإفراده الشعراء الجاهليين في طبقة وضم بعض المخضرمين إليهم ، وإفراد الإسلاميين بطبقة وضم بعض المخضرمين إليهم ، ثمّ بالوفاء بما وعد من جعل الشعراء في كل طبقة أربعين وكل أربعة متكافئة متعادلة في طبقة إنّما يُشيرُ إلى أنّ السّمات المتحققة في أشعار فحول الطبقتين هي السّمات الرئيسية في البيان الشعري ، وأنّه لا يكون البيان شعرًا إلا بتحقق تلك السمات فيه.

وكأنّه يشيرُ إلى ما يفصل الشعر عن النثر ، فهو يهدي إلى موطن الخبيء لتطلبه بنفسك.

كلّ ذلك نقوله ظنا مبنيا على أن ما ذهب إليه "أبو فهر" من تفسير مصطلح "الطبقة" بأنه "المذهب" والمنهج" هو الصواب أو إلى الصواب أقرب.

ولعله مما يؤازر مذهب "أبي فهر" في التفسير أنّ ابن سلام احترس في ترتيب الأربعة في كل طبقة من طبقات الجاهليين وطبقات الإسلاميين حتى لا يفهم القارئ أنه إنّما رتبهم على وفق منازلهم في الطبقة الصغرى ، وهو لم يحترس في ترتيبه الطبقات العشر

الجزئية في طبقة الجاهليين وطبقة الإسلاميين مما يعني أن ترتيبه الطبقات العشر في الطبقتين الكليتين ، والطبقات الأربع في طبقة شعراء القرى العربية إنما هو منظور فيه إلى منازل مذهب كلّ طبقة ذلك أنّ كلّ أربعة من الشعراء متكافئون معتدلون في تحقق سمات هذه الطبقة وان تفاوتوا فيما بينهم في مقادير التحقق .

ويؤيد هذا أنّ " ابن سلام " قال في شان الجاهليين والإسلاميين والمخضرمين : « فنزلناهم منازلهم واحتجنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما قال فيه من العلماء ، وقد اختلف الناس والرواة فيهم »

وقال :« فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه ،فوجدناهم عشر طبقات أربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين »

ويقول في كل أربعة في طبقة « إن أهل العلم بالشعر اجتمعوا على أنّهم أشعرُ العربِ طبقةً ،ثم اختلفوا فيهم بعدُ ، وسنسوق اختلافَهم واتفاقَهم ونُسمي الأربعة ، ونذكر الحجة لكلّ واحد منهم »

ويقول في أوس بن حجر: « وأوس نظير الأربعة المتقدمين إلا أنا اقتصرنا في الطبقات على أربعة رهط » ، فهذا دالٌ على أنّ تحقق سمات الشعر عند " أوس " في مذهبه تعادل تحقق السمات التي عند أصحاب الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية في مذهب كلٌ

وأنت تجده يجمع إلى "أوس" في طبقته "كعبا" و"الحطيئة" ولو أنه جمع إليهم زهيرا لقلنا إنه قد جمعهم لأنهم يمثلون مدرسة عبيد الشعر مدرسة المحككين

، وليس بين يدينا فيما وصلنا من الطبقات حديث "ابن سلام" عن "بشر بن أبي خازم" وشيء من حديثه عن "أوس" وعن " كعب" ولعله

كان يرى أن "بشرا" كان على منهاج ومذهب "أوس وكعب والحطيئة"
وهذا قد يؤازر ظنا لا يقينا ما ذهب إليه " أبو فهر" من تفسيره "الطبقة" في مراد "ابن سلام"

❖❖❖

مذهب أبي فهر
في تفسير الطبقة في ميزان النقاد

ما ذهب إليه "أبو فهر" أخذ به بعض النقاد ولم يسلمه بعضهم ، وأشير إلى شيء مما قاله بعضهم .

يذهب الشاعر المبدع والناقد الفقيه : الدكتور "محمد أحمد العزب" في سفره الماجد: (قضايا الشعر في التراث العربي) إلى أنه " يلوح أن "ابن سلام" حين قسم هؤلاء الشعراء إلى طبقات كان ينزع في ذلك عن اتجاه نقدي فني ؛ لأنّه جمع بين كل طائفة من الشعراء الذين يتشابهون في المذهب الفني أو المنهج الإبداعي عبورا فوق مواضعات الزمان والمكان والحس العقيدي - وإن كان لم يهمل هذه الأساسيات تماما - مما يرجح أن (النظر الفني) كان باعثه الحقيقي إلى هذا التقسيم ، فحين يضع بعض الشعراء المخضرمين في طبقات الجاهليين ، وبعضهم الآخر في طبقات الإسلاميين يوحي لنا بأنه يعتمد منهجا لا يناقض الاتجاه الفنيّ ، وهو الاتجاه الصوابي في تصنيف الشعراء والمبدعين بعامة فيما نعتقد" ([1]).

([1]) قضايا نقد الشعر في التراث العربي : محمد أحمد العزب ج١ ص ١٠٧ - ط: ١٤٠٤

فهذا بيّن في أن الدكتور العزب يستعلى القول بأنّ أساس التصنيف فني ، وأنّ الطبقةَ بمعنى المذهبِ الفنيّ كما افترعه أبو فهر، ولكنّ الدكتور العزب لا يفوتُه أن يشير إلى ما كان في منهاج "ابن سلام" من تجاوز في ما أسس عليه تصنيفه :

« وعلى الرغم من أننا نشيد باختيار "ابن سلام" للوقوف تحت مظلة النقد الفني إلي أن يتعامل مع الظاهرة الفنية بمنطقها الخاص ،وليس بأي منطق مجلوب من الخارج إلا أنّنا لا نستطيع تجاوز الإيماء إلى أن "ابن سلام" لم يلتزم هذا المنهج الفني التزاما كاملا ، فقد تردّد في تصنيف الطبقات (...) بين النظر الفني الخالص والنظر الذي يضع الزمان والمكان والحسّ العقيدي ، بل والكم الشعري أساسا التصنيف والمفاضلة ، حتّى إنه ليرفضُ أن يحتلّ شاعر مقلّ (كطرفة) أو (عبيد) مكانِ الصدارة في التاريخ الأدبي ، إلا إذا افترضنا أنّ لكلّ منهما حصادا إبداعيا أكثر مما هو معروف له الآن ، ولكنه ربما يكون قد ضاع ، فإن لم يكن له غير ما عرف ، فليس موضعه حيثُ وضع من الشهرة والتقدمة كما يقول(...) وهذا قطع يقينيّ بأنّ"ابن سلام" كان ينظر إلى الكمّ كقيمة حاسمة في تصنيف الشاعر في طبقة من الطبقات .

ومهما يكن من شيءٍ فنحن نستطيع أن نقول إن النظر الفنيّ كان أساس المنهج الذي ارتضاه "ابن سلام" في تقسيمه الشعراء الجاهليين والإسلاميين والمخضرمين جميعا إلى طبقات ،وأنّ أساس هذا النظر الفني قائم على (الفحولة) و(التشابه) في (المذهب الشعري) وإن كان ذلك بالطبع لا يلغي مبدأ أخذ "ابن سلام" بتأثيرات الزمان والمكان والحس العقيدي والتفوق في غرض شعري معين على أن تظلّ هذه جمعا روافد جانبية تصبُ في

المجرى الأساس الذي هو المذهب الفني الذي يجمع تحت رايته عديدا أو فلنقل طبقة من الشعراء"[1]

هذا الذي كان من الدكتور "العزب" فيه تدقيق واحتياط كاشف عن أن منهاج "ابن سلام" كان مبدأ تأسيس النظر فيه فنيا، وأنه لم يطمئن إلى أن التشابه الفني وحده بكاف في التصنيف لما أنّه قائمٌ على مرجعٍ ذاتيٍ ليس مناط مقاربة بين كثير من النُقاد من أنّه غير موضوعيّ صرف، وكلُ ما كانت الغلبة فيه لمرجع ذاتي هو مناط مراجعة ومناقدة ومنازعة، فنظر "ابن سلام" إلى ما يمكن أن يرُدّ هذا المرجع الذاتي من المراجع الموضوعية التي تتحاجز عن المنازعة والمناقدة والمراجعة.



مذهب "الدكتور منير سلطان"

في تفسيره مصطلح "الطبقة" في كتاب "ابن سلام".

اعد "الدكتور: منير سلطان" بحثا عن "ابن سلام وطبقات الشعراء" سنة (١٩٧٤) نشره سنة (١٩٧٧م) وكان قد رغب عن تسمية "أبي فهر" الكتاب« طبقات فحول الشعراء » راغبا في حذف كلمة « فحول» مقتديا بما ذهب إليه "السيد أحمد صقر" و"الدكتور مصطفى مندور" وقد ناقشهما ورد عليهما أبو فهر في طبعة الكتاب سنة (١٩٧٤)

ومما توقف عنده الدكتور منير سلطان تفسير كلمة "طبقات" في عنوان كتاب ابن سلام.

(١) السابق ج٢ص١٠٩-١١٠

يعرض أولا كلام "أبي فهر" وينتهي إلى أنّ أبا فهر جعل لفظ الطبقة يعنى المنهج أو المذهب ، وأنّه ليس معناه عند ابن سلام ما يتواردُ إلى الذهن من مرتبة أو منزلة ، ثُمّ يعلّقُ تعليقا يوحي أولُه بالموافقة ويدلُ آخره على المخالفة ، يقول معلقا :

"« والحقّ فيما قال الأستاذ شاكر»

وهنا لنا أن نتساءل : أ في كلّ ما قال الأستاذ شاكر الحق ؟ وفيما قال : إنّ معنى الطبقة المذهب وليس المنزلة ؟

إن يكن ، فإن الدكتور منير سلطان يقول من بعد ذلك :

" فكل شاعر طبقة ، وهو مع قرنائه الثلاثة يكونون طبقة ، فامرؤ القيس ما قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها استحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء منها (...) وكان أحسن طبقته تشبيها .

والنابغة كان أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتا كأنّ شعرَه كلام ليس فيه تكلف ، وزهير كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه .

والأعشى أكثرهم عروضا وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحا وهجاء ونظرا [1]ووصفا كل ذلك عنده .

---

(1) في طبعة شاكر « وفخرًا» ويعلق في الهامش بأن في نسخة «م» : « ونظرا وصفة» ، " نظرًا" كأنّه يريدُ استنباط المعاني واستخراجها بالنظر ،وهو التأمّل والتفكر ،وكذلك بعض شعر الأعشى ،
ويحيلنا إلى كتاب " المزهر" (ج ٢ص ٤٨٣) وهنالك نجد كلمة « وفخرًا»
وانت إذا نظرت في الأربعة وجدت على رواية نسخة « م » الأولين « المدح والهجاء» أغراضًا ،والأخيرين « منهج إبداع » إن قلنا إن الوصف لا يراد به هنا الغرض الشعري الذي هو قسيم أغراض الشعر : المدح والهجاء ⟸

فهذه الميزات الخاصة بكل شاعر ، وهي طبقة مستقلة بها ، فامرؤ القيس أحسنهم تشبيها ، والنابغة أحسنهم ديباجة ، وزهير أحصفهم شعرا والأعشى اكثرهم عروضا ، وهم جميعا طبقة : لأنهم تميروا عن سائر الشعراء بالشعر الجيد الكثير ، فالجودة والكثرة شرطان حدد بهما ابن سلام معنى الفحولة والشهرة والتقدمة

إذن دلَّ "ابن سلام" على الأساس الذي بنى عليه ما ذهب ، وهو المبدأ العام عنده (جودة وكثرة) أما طبقة كل شاعر أو مذهبه ، فقد أوضحها في شرحه للحصائص المفردة لكل شاعر تلك التي ذكرناها أنفا" (١)

انتهى كما سمعت الدكتور" منير" إلى أن الطبقة المنزلة في الجودة والكثرة ، وبهذا خالف "أبا فهر" في أن الطبقة هي " المنهج والمذهب" فأنت عليم بأنَّ الجودة إنما هي حكم على مذهب وليست هي المذهب والمنهج ، وأنَّ لكلِّ شاعرٍ عند الدكتور" منير" مذهبُه ومنهجه ، وأنَّ شعراء كلِّ طبقة ليسوا على منهج ومذهبٍ واحدٍ ، ولكنَّهم متكافئون في تحقق منازل الجودة والكثرة معا أو الجودة وحدها .

ولهذا يقول "الدكتور منير سلطان" من بعد :

⇐ والنسيب وهذا يعني انه ذكر له غرضين وذكر منزله في القول تصورًا :« نظرًا» وتصويرا:« وصفا» مما يعلى ما جاء في نسخة « م » .

وما في مختار " ابي فهر" ذكرٌ لأربعة اغراض من الشعر فاق فيها الأعشى إن قلنا إن الوصف هنا غرض لا منهج

ولو كنت مكان أبي فهر لاخترت رواية النسخة « م» لأن ذكر المدح يغني عن التصريح بذكر الفخر لما في الفخر من مدح ٠

(١) ابن سلام وطبقات الشعراء لمنير سلطان ص ١٨٢-١٨٣ – ط منشاة المعارف – الاسكندرية ١٩٧٧

«ومن ثم نعود فنجد أنفسنا ما زلنا في نقطة البداية وهي أن لفظ "طبقة" بمعنى منزلة ومرتبة ، وطالما أنّ هناك مبدأ عاما لمفهوم الفحولة عند ابن سلام فمن الطبيعيّ ألا يتوافر الشرطان في كلّ الشعراء ، ومن توافر فيهم شرطا ابن سلام ظهر بينهم خصائصهم الذاتية ، فجعلهم طبقة وأبان عن خصائصهم ووضع الباقين في طبقات تبعد نزولا عن المثل الأعلى للفحولة حتى يصل إلى الطبقة العاشرة (وهم أربعة رهط) لا جودة في شعرهم ولا كثرة "(١)

الطبقة عند "أبي فهر" مذهب ومنهج وأصحاب كل طبقة على مذهب واحد متكافئون معتدلون

فمذهب كلّ طبقة له أربعة أرؤوس : كل شاعر رأس في طبقته

وبذلك يكون لدينا في شعر الجاهلية عشرة مذاهب شعرية عند أبي فهر ، وكذلك عشرة مذاهب في الشعر الإسلامي ،

والدكتور" منير" لا يرى ذلك بل يرى أنها منازل ومراتب في تحقيق شرطي الفحولة عند ابن اسلام ، وهما الجودة والكثرة

والذي يعكر على كل أنّ ابن سلام قد يقيم الشاعر في طبقة ، ثُمّ يقولُ إنه نظيرُ السابقين في الطبقة المتقدمة كما فعل مع أوس فهو عنده من طبقة امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى ، وما حجزه عن الطبقة إلا تمام عدد الأربعة ، فيبقى سؤالٌ ، وما باله لم يحجز غيره كالأعشى مثلا إذا ما كان ترتيبه الأربعة الشعراء في كل طبقة جزئية ليس حكما بينهم وتقديما لفاضل على مفضول أمَا كان يمكن أن يقدم أوسًا ، ويؤخر الأعشى ، أو زهيرًا مع ابنه كعب وراويته الحطيئة ؟!!

---

(١) السابق ص ١٨٤

وأ مرْ آخر:

إذا ماكان "أوس" حقه أن يكون في الطبقة الأولى من أنه صالح أن يكون رأسا في مذهب الأولى ،وحجزه عن ذلك اكتمال الأربعة ، فكيف يكون راسا في مذهب آخر: مذهب الطبقة الثانية ،ويكون متكافئا مع بشرِ وكعب والحطيئة ،وهو المتكافئ أيضا مع امرئ القيس والنابغة وزهيروالأعشى في الطبقة الأولى ؟

أيعنى هذا ان مذهب الطبقة الأولى ومذهب الطبقة الثانية سواء أو متقاربان جدا ؟

وقد يذهب ذاهب إلى أنّ في اعتداد ابن سلام بكثرة ما يروى في مكان الشاعرمن طبقته ما يعكر على القول بالمذهب والنهج . فما شأن الكثرة بالمذهب ؟

الحق أنّ ذلك لا يعكر عليه ؛ لأنّ اشتراط الكثرة لتقدّم الشاعر معينٌ على التأكد من أنّ ما جاء فيما بلغنا من شعره من سمات فنية إنّما تمثل سمات مذهبه باستمراره عليه في شعره،وهذا الاستمرارُ إنّما يظهر بكثرة ما يروى عنه ، فالواحدة وإنْ عظُمَ شأنُها لا يُقطع بأنّ ما فيها من سمات يمثل مذهبا ومنهجا يُدرج الشاعرعليه غاديا ورائحا .

في تحققّ الكثرة توكيدٌ لطمأنينة أنّ تلك السمات قد غدت أصولَ منهج ومذهبًا شعريًا له ، فإذا ما فُقدت تلك الكثرة فقد أنزلته من طبقته ،وهذا يُعين على فهمِ قول ابن سلام :

« الطبقة الرابعة: وهم أربعة رهط فحول شعراء موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخلّ بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة» (1)

---

(1) طبقات فحول الشعراء ج١ص ١٣٧

ولكن لك أن تقول إنّ ما ذهبت إليه هنا يقوي أن الطبقة معتد فيها بالجودة والكثرة وليس بالمذهب ؛ لأنك قلت إنّ السمات العلية إذا كانت في قصيدة أو ثلاث ولم يكثر ما روي أنزلت صاحبها من طبقة إلى التي دونها كما فعل مع شعراء الطبقة الرابعة ، لتنظر فيما قاله في شأن الأربعة الشعراء من الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية : قال في طرفة « فأما طرفة فأشعر الناس واحدة ،وهي قوله :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ✧وقفت بها أبكي وأُبكي إلى الغد

وتليها أخرى مثلها ،وهي :

أصحوت اليوم أم شاقتك هرّ✧ ومن الحبُ جنون مستقرّ

ومن بعد له قصائد حسان جياد »[1]

فأنت تراه ينظر في الجودة والتفرد ، وفي الوقت نفسه في كثرة ما روي عنه

وفي " عَبِيد بن الأبرص " يقول :« قديمُ عظيم الذكر عظيم الشهرة ،وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله :

أقفرمن أهله ملحوب ✧ فالقطَبِيّات فالذنوب

.ولا أدري ما بعد ذلك .»

ويقول في علقمة بن عبدة الفحل : « ولابن عبدة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر . . . »

وقال في عدي بن زيد : « كان يسكن الحيرة ويراكن الريف فلان لسانه وسهل منطقه فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد ،واضطرب فيه خلف الأحمر وخلط فيه المفضل فأكثر.

وله أربع قصائد غرر روائع مبرّزات ،وله بعدهنّ شعر حسن »[1]

---

(١) السّابق ج١ ص ١٣٨

فأنت ترى علة تأخير طرفة وعبيد وعلقمة ليست الجودة ولكن القلة أما علة تأخير عدي فالجودة فقد لان شعره لمساكنته الحيرة ومراكنته الريف ...

فهل لك إذن أن تقول : إنّ الأربعة على مذهب شعري واحد ، وهذا عدي قد نزل من دون طرفة وعلقمة وعبيد ؟

ما قاله في الثلاثة مختلف في المذهب ، ولن يذهب أحد يقرأ الشعر إلى أن شعر علقمة من شعر طرفة مذهبا إذا ما قلنا إن المذهب هو طريقة الشاعر في شعوره وتصوره الأشياء من حوله وانفعاله بها وتفاعله معها ثم تصويره ،وتغنّيه بها

المذهب موقف شعري من الكون والحياة والناس شعورا وتصورا وتصويرا فهل ترى هؤلاء الأربعة " طرفة وعبيد وعلقمة وعدي على طريقة واحدة في هذا ؟

أليس الأقرب أن تقول إنّ لكلّ موقفا ومذهبا شعورا وتصورا وتصويرا ،ولكنهم متكافئون في إجادة كلٌ في مذهبه ، فهو تكافؤ في إجادة مذهب كل وليس تكافؤا في المذهب نفسه .

وهل لك أن تفهم قول "ابن سلام" « فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه » على أنّ التشابه في إجادة المذهب وقلة ما روي وكثرته ، وليس تشابها في الموقف والمذهب في الشعور والتصور والتصوير والتَّغَنِّي .

ولكنّ كلمة قالها ابن سلام في ختام مقدمته ومن قبل أن يلج في الحديث عن الطبقة الأولى ما تزال ناشبة بحلقي لا أعرف لها مذهبا قويًا .

---

(١) السابق ج١ ص ١٣٨- ١٤٠

يقول :« ثُم إنا اقتصرنا – بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم – إلى رهط أربعة اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة ثم اختلفوا فيهم بعد ،وسنسوق اختلافهم واتفاقهم ، ونسمي الأربعة ونذكر الحجة لكل واحد منهم ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى »

لتسمع قوله : « أنهم أشعر العرب طبقة » أيمكن أن يقال أنهم أشعر العرب مذهبا أي موقفا من الكون والحياة شعورا وتصورا وتصويرا وتَغَنِّيًا أم يقال أشعرهم إجادة ؟

والجملة الناشبة قوله : « ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى »

ماذا يريد بقوله : « تكون في الحديث والمعنى »

أيريد التي اتفقت أو تقاربت في الصنعة أو الشكل :(الحديث) والغرض أو المضمون :(المعنى) فيكون ذهابه إلى المنهج والمذهب لأنهما اللذان يشكلان الشكل «الصنعة» والمضمون «المعنى »: الحديث والمعنى ؟

وإن يكن هذا مراده فإنه مؤازرٌ ما ذهب إليه الشيخ شاكر من تفسير الطبقة بالمذهب والمنهج ،وإن يكن غير ذلك فما هو ؟

التفسيران لكلمة " طبقة" : تفسير "أبي فهر" وتفسير الدكتور" منير" في كلام "ابن سلام " أو صنيعه في كلٍّ ما يعكر عليه ممّا لا يجعل الأخذ بأحدهما وحده صرفا أخذا تطمئن النفس إليه .



مذهب إحسان عباس :

وإذا ما جئنا إلى الدكتور "إحسان عباس" فإنا نراه يبين لنا أن أساس التصنيف عند "ابن سلام" هو الفحولة ،وقد شغل عن تفسير الطبقة بالإشارة إلى التبعية التي قام فيها "ابن سلام" لما كان قائما من أصول نقدية من قبله ولاسيما موقفه مما أثر عن شيخه الأصمعي في قضية الفحولة .

من بعد أن يعرض تقسيمات "ابن سلام" يقول :

« ولابد لمن يطالع هذه القسمة من أن يتساءل : على أي الأسس أقام ابن سلام هذا التمييز والتدريج ؟

يبدو أن الفحولة هي الأساس الأول في ذلك ، فكل من ذكرهم في كتابه شعراء فحول...

وهنا يتجلى لنا كيف أن "ابن سلام" وسع من حدود فكرة الأصمعيِّ وأعاد صياغتها ، فقد كان الأصمعيِّ يقسم الشعراء إلى فحول وغير فحول ، فجاء ابن سلام وقال : هم فحول إلا أن الفحولة تتفاوت...

أما الأساس الثاني فهو تقارب كل أصحاب طبقة في أشعارهم " ألفنا من تشابه منهم إلى نظرائهم" وهذه قاعدة هامة »([1])

ولم يبين لنا الدكتور إحسان ماذا يراه مناطَ التشابه في شعراء كلِّ طبقةٍ جزئية : أتشابه إجادة وكثرة أم قلة كما يذهب الدكتور منير سلطان أم تشابه مذهب ومنهج كما يراه صديقه وصاحبه "أبو فهر" ؟

([1]) تاريخ النقد الأدبي عند العرب لإحسان عباس ص ٨٠ – دار الثقافة – بيروت

ولكن "الدكتور إحسان" ينقد موقف "ابن سلام" بأنّ ما جمعهم في طبقة واحدة من الأربعة الشعراء لا يتشابه شعرهم .
يقول :" ولكنا اليوم إذا احتكمنا إلى مقاييسنا النقدية – وهذا احتراس حميد من الدكتور إحسان – لم نجد بين شعر الأعشى وشعر زهير أو النابغة شبها كبيرا ، وترددنا في أن نضع أبا ذؤيب الهذلي مع النابغة الجعدي في طبقة واحدة كما فعل ابن سلام للتباين بين الشاعرين وأشعارهما »[1]
استدراكه هذا يلفتنا إلى أنه ناظر في التشابه إلى المذهب والمنهج ،وليس إلى الجودة والكثرة والقلة فإن هؤلاء الذين ذكرهم متفاوتون في مذاهبهم لا في إجادتهم وكثرتهم ، فكلهم مجيد مكثر
ويؤازر ما أشرت إليه أنّه قال من بعد : « أحيانا يكون هذا التشابه الذي اعتمده ابن سلام تشابها في الموضوع .... الخ
فالدكتور "إحسان" على مدرج الدكتور منير سلطان في جعل تفاوت الطبقات في الجودة والكثرة والقلة وليس في المذهب

❖❖❖

مذهب الدكتور : جهاد المجالي

ويأتي الدكتور "جهاد المجالي" ليفرد لطبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب " بحثا مستقلا يفصل فيه القول متتبعا مفهوم الطبقة عند اللغويين والمحدِّثين ونقاد الأدب ، ومبينا مقاييس تصنيف الشعراء في الطبقات عند النقاد منتهيا إلى أنها سبعة مقاييس :

* الزمان

[1]) السابق

* المكان
* الكم والجودة
* القدرة على التصرف في أغراض الشعر
* الموضوع الشعري
* الدين
* الفن الشعري .

ويؤسس الدكتور"جهاد" للقول في الطبقات ببيان أن التقسيم الطبقي يرجع إلى منهجين في بناء الطبقات وترتيب ما فيها :

الأول : البناء الرأسي للطبقات والآخر البناء الأفقي للطبقات

﴿البناء الرأسي﴾ :

يكون التفاوت بين أفراده تفاوتا تفاضليا تتوالى درجاته من أعلى إلى أسفل أو العكس ، وغالبا ما يكون التفاوت في موضوع واحد استطاعت كل طبقة فيه الوصول إلى مستوى معين منه كتفاوت السموات في الارتفاع .

وهذ البناء له معاباة :

- منها أنّ الطبقات فيه مغلقة على ما فيها فلا تعود تسمح بالدخول ولا بالخروج إى ضمن إطارٍ محدّدٍ يحافظُ على هذا النّسق الواحدِ المتشابه الذي لا يُخلُّ بتركيبة الطبقة . فهذا البناء أضيق وأكثر حدة.
- ومنها أن التساوي فيه في القيمة
- ومنها أن الطبقة هي التي تشغل الناقد وتفرض عليه الوضع الذي يجب أن تكونَ عليْه .

وهذا البناء هو ما جاء عليه كتاب الطبقات لابن سلام في الطبقتين الرئيستين : (طبقات الجاهليين والإسلاميين) فكان مفهوم الطبقة عنده مفهوما قيميا بدليل أنّه يؤخر الشاعر لا لمنهاج إبداعه بل لقلة ما جاء عنه موثوقا به ، كما فعل مع شعراء الطبقة الرابعة من طبقات الجاهليين فقد قال

« وهم أربعة رهط فحول شعراء موضعهم مع الأوائل ،وإنّما أخلّ بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة »([1])

ويقول في الطبقة السابعة : « أربعة رهط محكمون مقلون ، وفي أشعارهم قلة ، فذاك الذي أخرهم »([2]) فلم يكن تأخيرهم من منهاج إبداعهم ومذهبهم الشعري كما يذهب إليه "أبو فهر" بل من قلة ما جاء عنهم موثوقا به على الرغم من علو هم في باب الشعر إبداعا .

﴿الآخر: البناء الأفقي﴾

يكون التفاوت في الوضوع ، ولكن كلّ طبقة قد تساوت مع الأخرى في الوصول إلى درجة أو منزلة واحدة ، فالتقت عند الدرجة نفسها على الرغم من تفاوت الموضوعات ، وكل طبقة من هذا البناء هي رأس في موضوعها ، كمثل ما تراه بين الخليل وسيبويه والشافعي والبخاري والطبري وعبد القاهر فكلّ واحد منهم رأس طبقة في موضوع ، فطبقاتهم ذات بناء أفقي يسمح بأن يتوالى فيه من تحت رأسه كثير

([1]) طبقات فحول الشعراء ج١ ص ١٣٧
([2]) السابق ج١ص ١٥٥

وننظر في خبر رواه القاضي ابن أبي يعلى في "طبقات الحنابلة" بإسناده إلى العباس بن محمد بن حاتم الدوري(١٨٥-٢٧١) أنه قال :

« انتهى علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إلى ستة نفر من الصحابة رضي الله عنهم عمر بن الخطاب ،وعلى بن أبي طالب ،وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، فهؤلاء طبقات الفقهاء.

وأما طبقات الرواة فستة نفر....

وأما طبقات أصحاب الأخبار والقصص فستة نفر....

وأما طبقات التفسير فستة أيضا...

وأما طبقات خزّان العلم فستة نفر أيضا....

وأمّا طبقات الحفاظ فستة نفر....."

" في هذا الحديث تتضح فكرة التوافق 'الأفقي بين الطبقات فلكلّ طبقة موضوعها المحدد ، وكل طبقة تتوافق مع الطبقة الأخرى في تمييز أصحابها في موضوعاتها ، والطبقة هنا بمعنى المنزلة ، وهي منزلة رفيعة يتبوؤها ستة أشخاص على الرغم منه يُعدُّ كلُّ واحدٍ من هؤلاء السّتة طبقة قائمة بذاتها ، ويشكل الستة مع بعضهم طبقة واحدة متميزة ،فهو حين ذكر طبقات الفقهاء على سبيل المثال ذكر ستة أسماء كل واحد منهم رأس في موضوعه ، وهنا يتضح مبدأ التساوي داخل الطبقة الواحدة ، فلا يوجد واحد أفضل من الآخر داخل هذه الطبقة ، وكأنَّ كلَّ واحدٍ من السّتة طبقةٌ فرعيّة ، ومجموعُ هذه الطبقاتِ المتفرعة السّتّ يُشكّل الطبقةَ الأمّ المتميّزةَ في موضوعها"

والبناء الأفقي يتميز بأمور :

- منها أنّه أكثر مرونة ويسرا .
- ومنها أنّ المساواة محققة بين كل طبقة وأخرى من حيث القيمة والمنزلة ؛ لأن كل طبقة استقلت بموضوع خاصّ بها ووصلت فيه إلى الدرجة التي وصلت إليها مثيلاتها من الشهرة والمنزلة .
- ومنها أنّ الاختلاف ليس اختلافا في القيمة بل في الوضوع .
- ومنها أنّ الاختلاف في الموضوع يؤدي إلى أنّ الشاعر الواحد يمكنُ أن ينتمي إلى أكثر من طبقة لعُلُوّه في أكثر من موضوع .
- ومنها أنّ عدد شعراء كلّ طبقة مختلفة في الموضوع لا يتحدد بمقدار معين على نحو ما رأينا في حصر ابن سلام طبقات الجاهليين في عشر ، وجعل كلّ طبقة من أربعة رهطٍ فلم يتيسر له أن ضم خامسا إلى طبقة يراه جديرا بأن يكون فيها إلا أنّ الحصر العددي منعه من إدراجه في طبقته ، فظلمه ابن سلام وما كان له أن يظلم
- ومنها أنّ الأساس في التصنيف هو حال الشعراء أنفسهم وفق إجادتهم في موضوعات إبداعهم .(1)

---

(1) طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب - جهاد المجالي ص ٦٧- ٦٨ - دار الجيل - بيروت

وابن سلام لم يأخذ بالبناء الأفقي في بناء طبقات الجاهليين والإسلاميين ، ولكنه قد أخذ به في بناء الطبقات التي جعلها حشوا الطبقتين الرئيستين ، ذلك أنّه حين أحسّ أن هذه الطبقات بدأت تتفسخ بين يديه اضطر إلى استخدام الطبقات الأفقية المفتوحة التي لا تحديد لعدد الشعراء داخلها ، وذلك حين أتى بطبقة لشعراء الرثاء ، وأخرى لشعراء القرى ، وأخرى للشعراء اليهود ، وهذا ما كان عليه أن يفعله من قبل .

إنّ نظام " ابن سلام " هذا كان من المكن أن يؤدي أهدافه المرجوة منه لو أنّه اعتمد الدراسة التحليلية ، وتبيان الأسس المشتركة والسمات الغالبة ، وبغير هذا سيبقى قوالب جامدة .

ومن هنا فإن من جاء من النقاد بعد " ابن سلام" تحاشوا استخدام هذا النظام ، وعدلوا عنه إلى نظام أسهل وأكثر مرونة ، وهو نظام الطبقات الأفقية المفتوحة .

مجمل الأمر عند الدكتور جهاد أن مفهوم الطبقة عند "ابن سلام" هو مفهوم قيمي ، ولا تعنى الطبقة عنده ما ذهب إليه "أبو فهر" من أنه المذهب والمنهج

وأنّ ابن سلام لم يتخذ منهاجا واحدا في بناء طبقات الشعراء بل جعل الطبقتين الرئيستين على منهاج البناء الرأسي المغلق على أربعين شاعرا في كل طبقة مقسمين على عشر طبقات كل واحدة أربعة شعراء .

وجعل بناء الطبقات الحشو على منهاج البناء الفقي المفتوح الذي يسمح بأن يتفاوت عدد الشعراء في كل طبقة ، وأن يضاف إليها آخرون .

ويبقى أمر يتعلق باختلاف منهاج البناء بين الطبقتين الرئيستين والطبقات الحشو:

أيكون مردُّ ذلك إلى أنَّ الكتاب لم يكتمل في يد "ابن سلام" وأنَّ أجله قد وفيَ ولم يكتمل بناء الكتاب ، ولو أنَّ "ابن سلام" أتمَّ الكتاب ربما كان بانيا له على نهج سواء أم أن الأمر على قصد من "ابن سلام" أراد من وراء ذلك أن يقدم لنا منهاجين من مناهج بناء الطبقات لنتخذ ما نشاء منهما ؟

يبقى الأمر في طور الحدس الذي لا قبل لأحد أن يجزم به إلا "ابن سلام" نفسه ..



مفهوم الطبقة عند"ابن سلام" كما يراه الدكتور "جهاد" إنَّما هو المنزلة الشعرية ، وليس المذهب الشعري ، ومردُّ ذلك إلى أمور تصنيفه تصنيف قيمي ،

والتشابه بين شعراء كل طبقة" تشابه في المنزلة الشعرية من حيث القدرة والتفوق غير أنَّ هذا التشابه يشمل معاني أخرى في بعض الأحيان غير المقدرة والتفوق ، فسنجد أنَّ التشابه سيكون أحيانا في الموضوع الشعري

، وأحيانا من حيث البيئة

او من حيث الدين [1]

فليس عند ابن سلام معيار واحد للتصنيف ، وليست الطبقة عنده طبقة في المذهب الشعري كما ذهب إليه "أبو فهر"



---

[1]) طبقات الشعراء للدكتور جهاد المجالي ص ٧٣

مذهب الدكتور عبد الحكيم راضي :

وممن لا يرى الأخذ بما ذهب إليه أبو فهر من أنّ الطبقة عند ابن سلام بمعنى المذهب الشعري ، فيكون معنى عنوان الكتاب (مذاهب فحول الشعراء) الدكتور "عبد الحكيم راضي" في تقديم طبعة الطبقات بتحقيق أبي فهر في سلسلة ﴿الذخائر : عدد ٧٢﴾ يقول : « إنّ هذا الذي ذهب إليه الأستاذ لا يستقيم مع عدد من المسلمات البسيطة إلى جانب أنّه لا يستقيم مع كلام "ابن سلام" عن شعرائه في المواضع المختلفة .

وعلى سبيل المثال فإنّ أحدا لا يمكنه القول إن "جريرا والفرزدق والأخطل والراعي" وهم شعراء الطبقة الأولى من الإسلاميين كلهم من مذهب واحد في الشعر،والأحاديث كثيرة عن مذهب كل منهم ، والفرق بين كل واحد وصاحبه .

والأمر كذلك بالنسبة للطبقة الأولى وغيرها من الجاهليين ، و"ابن سلام" نفسه كثيرا ما يفاضل بين أبناء الطبقة الواحدة ليس في المستوى العام وإنما في المذهب الفني ، فهو مثلا يقارن بين " لبيد" و" الشماخ " وكلاهما في الطبقة الثالثة من الجاهليين :" فأما "الشماخ" فكان شديد متون الشعر أشدّ أسر كلام من "لبيد" ،وفيه كزازة و"لبيد" أسهل منه منطقا"

شعراء الطبقة الواحدة إذن – في تصنيف ابن سلام – ليسوا من مذهب فني واحد ، ولم يقل أحد إن الأربعة الذين صنفهم في الطبقة الأولى من الجاهليين كانوا من مذهب واحد . . .

أكثر من هذا يستعصي (. . .)هذا القول على مبدأ التحديد العددي الذي ينحصر بموجبه شعراء كلّ مذهب في أربعة ، ولو كان الأمر

أمر مذهب فني لرأينا ممثلي بعض المذاهب يفوقون في عددهم ممثلي بعضها الآخر... »([1])

ويستمر الدكتور عبد الحكيم راضي قائلا: « كلّ ذلك يحملنا على التوقف إزاء معنى الطبقة في تصور الأستاذ "شاكر" كما ينقلنا إلى السؤال عن الأساس أو الأسس التي بنى عليها "ابن سلام" ترتيب طبقاته والمفاضلة بين شعرائه

ثم يقول :« نرى انّ ثمة معيارا أو أكثر أقام عليه ابن سلام اختيار شعرائه وترتيب طبقاته خلاف معيار المذهب الفني (...)إن عنوان الكتاب (...) ينطوي على نظرة قيمية للشعراء إلى فحول وغير فحول(...) فإذا جئنا إلى ترتيب الطبقات من أولى وثانية إلخ وجدنا المعيار القيمي أو معيار الشاعرية هو الغالب وذلك بالتأكيد هو تأويل قول ابن سلام « ثم اقتصرنا إلى رهط أربعة اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة » أي أشعرهم في حقيقة الشعر كما كانوا يقولون لا في مذهب بعينة ، وذلك ما يؤكده لجوء ابن سلام إلى معيار ترجيحي آخر هو (عنصر الكم) بمعنى مقدار الشعر الذي صحت نسبته إلى كلّ شاعر ، وذلك سعيا إلى تحديد طبقة الشاعر عند تساويه مع غيره في مستوى الشاعرية ...

وقد يكون مفيدا في الحديث عن "الأسود بن يعفر" أن نتدبر قول ابن سلام « لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته » فكلمة مرتبته قاطعة في الدلالة على المستوى لا على المذهب الفني ولا شك أن كلمة الطبقة تستعمل عند ابن سلام كمرادف لكلمة المرتبة

([1]) تقديم الدكتور راضي طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر كتاب طبقات فحول الشعراء (سلسلة الذخائر – العدد: ٧٢) ج١ ص ١٣-١٢

ولو أن معنى الطبقة عند ابن سلام كان – كما ذهب الأستاذ "شاكر" – المذهب الفني لما كان هناك موضع لحديثٍ كَمٍّ (...) ولما كان هناك معنى أيضا لتحديد الطبقة بأربعة شعراء .
أضف إلى ذلك أنّه لو خطرت فكرة تصنيف الطبقات على وفق المذهب الفني لكان من الواجب تسمية كلّ مذهب باسم يلائمه إذ كان الوعي بالمذاهب الفنية أو على الأقل إرهاصات هذا الوعي قد بدأت في الظهور .....
بذلك يتحدد معنى الطبقة –في رأينا– عند ابن سلام فطبقة الشاعر هي مستواه في سلم الشاعرية بعيدا عن مذهبه الفني ، وهي تتحدد في تطبيقات ابن سلام بالنظر إلى هذا المستوى غالبا أو بالنظر إليه وإلى مقدار ما صحت نسبته من شعر الشاعر في بعض الأحيان » (1)

❖❖❖

نخلص مما سبق إلى أن "أبا فهر" يذهب إلى أن الطبقة تعنى المذهب وأن التصنيف إلى طبقات كان بمعيار فني ناظر إلى تشاكل شعراء كل طبقة في المذهب والمنهج الشعري ، وعلى هذا يؤول عنوان الكتاب إلى معنى مذاهب فحول الشعراء .
وهذا الذي اتخذه "أبو فهر" قد اتخذه أساسا صاحبته أسس أخرى الدكتور العزب .
وأن الدكتور "منير سلطان" يذهب إلى أن الطبقة هي المنزلة والمرتبة في التجويد والإكثار من القول الشعري " وأن من جمع بينهما فمنزلته ومرتبته أعلى وهم أصحاب الطبقة الأولى من الطبقات

(1) السابق ج1 ص ١٧ -١٥ (بتصرف)

العشر عند الجاهليين وعند الإسلاميين ،ومن افتقر إليهما فهو في الدنيا من الطبقات العشر في كل ، وأن هذا التصنيف بين الفحول وليس بين كل من قال شعرا ، فالذين في الطبقة العاشرة من الجاهليين والإسلاميين هم أيضا في دائرة الفحول وإنما هم في الطبقة الدنيا بالنسبة إلى الأولى من الشعراء الفحول .

وأن الدكتور إحسان عباس والدكتور جهاد المجالي والدكتور عبد الحكيم راضي قد قاربوا ما ذهب إليه الدكتور منير سلطان مع اختلاف يسير عند كلٍّ .



والذي استظهره أن التشابه بين شعراء كل طبقة ليس في المذهب الفني وحده بل ثَمَّ أسسٌ أخرى تصاحب ذلك الأساس ، وإن يكن للمذهب الفني منزل بينها ،ولا سيما في طبقة الجاهليين وطبقة الإسلاميين ،

ولا يبعد عن الإدراك أنَ لبعض الأسس الأخرى سلطانًا بجانب المذهب الفنيّ ، كما تراه في الطبقة الثالثة من طبقات الجاهليين ، فإنّي لا أرى أنّ لبيد بن ربيعة يقوم بجانب الشماخ وأبي ذؤيب مثلا ، على الرغم من انّه صاحب معلقةٍ ، فإن منزع الشماخ عندي أعلى وشدة أسره الشعر لا ينزل من قدرها في الشاعرية مثلما لا يعلي مقام لبيد فيها عليه عندي سهولة منطقه ، ورقة حواشي كلامه ، فالسهولة ورقة الحواشي في بناء الشعر إنما يعليان شأن الشعر عندي حين تجتمعان إلى شدة متن الشعر وأسره ،واقتدار على الوصف .

وكذلك لا أرى النابغة الجعدي بأهل لأن يقوم بجانب الشماخ وأبي ذؤئب ، فقد قرنا بمن دونهما : الجعدي ولبيد ، ولو جعل طرفة وعلقمة إلى الشماخ وابي ذؤيب لتقارب الأربعة .

والاعتداد بأسس أخرى بجانب الأساس الفني ليس مرغوبا عنه – عندي – فإن بعضا من تلك الأسس يؤول إلى المذهب الفني، كمثل أساس الاعتداد بمقدار القصائد عددًا وطولا مع الجودة ذلك أنّ النظر إلى معيار الكم هو في ظني ذو مرجع فني ، فإنّ بلوغ قصيدة واحدة أو ثلاث من جياد الشاعر لا تدلُّ دلالة بينة على المنزع الشعري للشاعر فمن لنا أنّ هذا مذهبه ومنزعه الذي عليه يقيم في إبداعه ؟

إن تعدد القصائد الجياد ذات المنزع الواحد دالة لا محالة على أنّ الشاعر متمكن من ذلك المنهج بحيث أضحى ملكة قائمة فيه لا قبل لها أن تفارقه فيصدر عن غيرها ،أما الواحدة فقد تكون وليدة ألق التمع فيه إثر عامل خارجي ،وليس عاملا ذاتيا متمكنا يتمثل في الطبع والملكة والدربة معا .



وكأنّي بابن سلام حين أقام طبقات من الشعراء حشو طبقتين رئيستين كان على عزم أن ينظر في أثر ثلاثة عوامل في النزع الفني

* عامل الغرض الشعري ممثلا في (طبقات المراثي)
* وعامل البيئة ممثلا في طبقة شعراء القرى العربية
* وعامل الرافد العقدي ممثلا في شعراء يهود

وأنت لا تراه في هذه الطبقات الحشو قد ألزم نفسه بأن تكون كل طبقة من أربعة رهط كما فعل في الطبقتين الرئيستين طبقات

فحول الجاهلية وطبقات فحول الإسلام من أن كلامه في شعراء الطبقات الحشو خداج لم يكتمل في تفكيره

وأنت إذا ما ناظرت كلامه في ما جاء من أشعار أصحاب هذه الطبقات الحشو بما جاء عنه في أشعار أصحاب طبقات فحول الجاهليين ، وفحول الإسلاميين رأيت بونا عظيما، فإنه في شعر الطبقات الحشو كان نزير الكلام لا يكاد يبين لك عما يكون عليه حال شعر كلّ شاعر منهم .

ولو أنّه جعل القول في كل الطبقات مفتوحا غير محصور بعدد معين عشر طبقات في كل طبقة أربعة رهط كما في الطبقتين الرئيستين لكان أجدى وأعلى، فإنّه قد حجر واسعا في الطبقتين الرئيستين فحول الجاهليين وفحول الإسلاميين .



فاصلـــة

يمكن مما مضى بسطُه أن أستخلص الأسسِ الفنية التي يكون منها جوهر الشعر الذي به يتحقق التفاضل بين الشعراء، واجعلها في ثلاثة كلية :

* الموهبة
* التثقيف
* التنوع

ونفصلها فيما يأتي :

* أن يكون الشعر نتاج قريحة مواتية لاتطبع الشعر بالتكلف :

الاقتراحُ : ابتداعُ الشيء من ذات نفسك منْ غير أن تسمعه من غيرك ،وقريحة الشاعر طبيعتُه التي جُبل عليها ،وقريحُ السحاب ماؤه النازل، ،وطريق مقروح أي قد أثر فيه فصار ملحوبا بيّنا موطوءا ،والقَراح (بالفتح) : الماء الذي لايخالطه ثُفل(بالضم) من سويق ولا غيره.

وشعرُ القريحة هو الشعر المطبوع الذي لايكون عن تكلف يستنزل به الشعر من النفس على غير إتيان به منها طوعا .فهو الشعر المستنبط من النفس لجود في طبعها وسخاء به ،لما فيها من استعداد فطري لإبداعه.

فإن ما كان كذلك من الشعر كان الفن فيه عليا من تصويره النفس تصويرا صادقا.

وهذا يجعل النظر إلى الصدق الفني في القول ،والتحرز عن التكلف أساسًا فنيًا من أسس الشعر وجوهره عند ابن سلام ، وهو قد ركز

على تلك السمات في بيان سمات ما اصطفاهم من فحول الشعراء على اختلاف عبارته عن القريحة وما يلزمها من السمات .

يقول عن "أوس بن مغراء" إنه لم يكن إلى النابغة الجعدي في قريحة الشعر وكان النابغة فوقه " (٢/١٢٦) . وخداش بن زهير " أشعر في قريحة الشعر من لبيد " (١/١٤٤) وكذلك " الكميت بن معروف الأوسط أشعرهم قريحة " (١/١٩٥)

وهذه القريحة تجعل صاحبها غير معنًى في إبداعه فكأنما هو يغرف من بحر على نحو ما كان من شأن جرير ففضله الأخطل على الفرزدق قائلا « جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر» (٢/٤٥١)

والشاعر الفحل لا يستغني بما تجود به قريحته عن أن يستبصر وينقذ في أغوار ما به جادت ، فيبصر مواقعه وما يوائم غرضه ومغزاه ،وهذا ما تجده قائما في قول "بشار" ،وقد سئل :

« بم فقت أهل عمرك ،وسبقت أهل عصرك في حسن معاني الشعر ،وتهذيب ألفاظه ؟

فقال : " لأني لم اقبل كلّ ما تورده عليّ قريحتي ،ويناجني به طبعي ، ويبعثه فكري ، ونظرتُ إلى مغارس الفطن ،ومعادن الحقائق ،ولطائف التشبيهات ، فسِرْتُ إليها بفهم جيد، وغريزةٍ قويةٍ فأحكمتُ سبْرَها ، وانتقيتُ حرَّها ، وكشفتُ عن حقائقها ، واحترزت عن متكلفها " (١)

ومن هذه القريحة يستطيع أهل العلم بالشعر التفرقة بين الشعر المطبوع الذي خرج من نفس الشاعر خروجا مواتيا غير عصي فدل

---

(١) زهر الآداب للحصري ج١ ص ١١٩

على نفسه ، فأمكنهم بذلك أن يفصموا بينه وبين ما حمل عليه انتحالا ، فإن المنتحل تبدوا عليه آثار التكلف ونضوب ماء القريحة فيه مما لا يدركه إلا أهل العلم بالشعر ، وكلّ ما لم يكن من نتاج القريحة والطبع والغريزة والملكة والاستعداد الفطري غير جدير بأن يكون من الشعر الذي فيه خير.

ومن ثم تجد ابن سلام يذكر في فضائل الفحول أنهم غير متكلفين ولا تقع في أشعارهم المعاظلة ،وأنهم لذلك لا يقولون إلا ما تدركه الرؤية الشعرية النافذة في الأشياء فتصفها على ما أبصرت فكان قولا موضوعيا لا يذكر الشيء مدحا أو ذما أو وصفا إلا بما فيه عند البصيرة الشعرية النافذة . والاعتداد في هذا بما تبصره الرؤية الشعرية للأشياء فيها لا ما تقف عنه النواظر فيظن جهالة أو غفلة أنها منه خواء ، وأنّ الشاعر قائل بما لمن يعلم ويشعر.

ومن البيِّن أن علم الشاعر وشعوره وفقهه أنفذ من علم وشعور وفقه غيره ، فهو أصدق قيلا وتصويرا .

وهذا الذي أخذ به " ابن سلام " من أهمية أن يكون الشعر نتاج قريحة مواتية لا تطبع الشعر بالتكلف جعل خلفه من النقاد يؤكدون أنّه « مع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنع نفرة ،وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق وإخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سببًا لطمس المحاسن ...» (1)

والقريحة تحقق للشاعر سمة شعرية أخرى ذات مكانة علية هي حسن الديباجة وكثرة الماء والرونق وذلك ما تراه في تقديم

(1) الوساطة بين المتنبي وخصومة للقاضي الجرجاني ص ١٩

النابغة الذبياني فقد كان أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتا ، كأنّ شعره كلامٌ ليس فيه تكلف . (١/٥٦)
ورونق الشعر آية على تجدد الحياة فيه ، فكما أن الماء آية التجدد لما قام به فإن الرونق آية تجدد الحياة في الشعر مما يبعث فيه البهاء والحسن ، وهذا يتحقق فيما تباعد به مبدعه عن التكلف ، فإنّ التكلُّف ينضب ماء الشعرورونقه ، فهو من شدة اقتدارالشاعر على الصنعة المتولدة من القريحة والطبع المثقف كأنّ شعره المصنوع كلام خرج عفو الخاطر

ولذلك تجد "الآمدي" في تفضيله "البحتري" يقول :
«وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتّي وقرب المأخذ واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله ،وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له ،وغير منافرة لمعناه ، فإنّ الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف ،وتلك طريقة البحتري[1]

وهذا يتعلق بالنسيج الشعري وملامسة الذوق له وما يتبينه من خلوه من خشونة المسمع وكزازته ،وما يدركه الذوق من نضارة الشعر وتجدد أثره في النفس كلما سمع ،وكأنّه الغضُّ الطريّ الذي قيل من ساعته ،ولم تسمعه الأذن من قبل لما يتوافد عليك في كل مرة من جديد عطاياه، فماء الشعر ورونقه رمز إلى تجدده ونضرته وتوافد عطاياه على النفس وتنوعها، فلاتُحسُّ النفس معه بأنه قد سبق لها أن لامسته فتأنف من إعادته .

---

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي ج ١ ص ٤٢٣- تح: السيد صقر - دار المعارف

ومن القريحة تكون عذوبة المنطق ورقة الحواشي التي هي ثمرة التباعد عن الخشونة والوحشية والمعاظلة ،ومرد هذا إلى أمرين رئيسيين :(الأول): حسن اختيار المفردة ذات التناسب النغمي في مكوناتها ،وتباعدها عن التطويل الذي يحمل إلى اللسان من المعانة في التغني (والآخر): حسن نظم الكلام بحيث تتلاحظ الكلم وتتنادى لتلاحظ المعاني وتناديها

فلا يراد برقة الحواشي الركاكة وهلهلة النسج ،بل نعومة ملمس الألفاظ ، فهي صفة قائمة في نغم الكلمات تحس بها النفس عبر الأذن ،وهذه السمة تعين عليها بعض الأغراض الشعرية كالنسيب ووصف الأشواق ،والاستلطاف ،ولا يعين عليها وصف الحروب والتهديد والتخويف .

وممن كان له من رقة حاشية الكلام نصيب وفير " عبد بني الحسحاس" فهو حلو الشعر رقيق حواشي الكلام (٨٧/١) ولبيد بن ربيعة قد كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام .(١/ ١٣٥٩ وكان " القطامي" عندابن سلام أيضًا " شاعرًا فحلا رقيق حواشي الكلام حلو الشعر"(٢/ ٥٣٥)

❖❖❖

❋ = الصنعة

الصنعة ليست نقيض الطبع ، بل هي ثمرة جودته ،وهي نقيض التكلف الطبع المثقف يثمر صنعة ، فليس الشعر إلا صناعة أثمرها الطبع المثقف ،وابن سلام نفسه يقول:" وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم "(١/ ٥)

الشعر عند ه – إذن – ما كان نتاج قريحة ثقفتها الصنعة ،ولم يكن نتاج قريحة ساذجة لم تمسها الصنعة بالتثقيف وقد بينت من قبل

معنى الصنعة والتثقيف ، فالصنعة التي رأيت أصولها فيما جاء عن " بشار" في مقالته السابقة هي أساس من أسس الشعر عند ابن سلام ، فهي لازمة من لوازم علو نتاج الطبع والقريحة

وهنا قد تقابلنا مقالات تناثرت في كلام ابن سلام يظن منها أن ابن سلام يستعلى ألا يكون كل شعر الشاعر من قريحة أعلت نتاجها صنعة مثقفة ، فقد يظن أن هذا من التكلف على نحو ماجاء عن "أبي عمرو بن العلاء في شأن النابغة الذبياني من أن " مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره" (٦٦/١) أي أن شعره ليس كله بالمصفى ، والمنتخب .

ولهذا يفسر "ابو فهر" هذا بأنه "يصطاد الجيد والردئ لا يبالى .

لا آخذ بماذهب إليه " أبو فهر" بل لعلّ المعنى أن النابغة كان يصطاد معاني شعره مما عظم وجل من مضارب القول ومما كان من دون ذلك من شئون الحياة ، فهو تفاوت في مناطات صيد المعاني الشعرية ومجالاتها ، وليس تفاوتا في منهاج الصنعة الشعرية . ،والتفاوت الأول يعلى شأن الشاعر لا ينزله

ولو أنا نظرنا في مقالة " أبي عمرو" رأينا أنّه شبهه بالبازي الذي يضرب كبير الطير وصغيره ،وصغير الطير لا يعني رديئه ، بل من صغير الطير ما هو أشهى ،مثلما بعض الشعر في بعض شؤون الحياة العامّة هو أشهى ، وأمتع ،وأبو عمر قدجعله بازيًا ، فلم يجرده من قوته واقتداره حال صيده صغير الطير(شؤون الحياة العامة ، اوما يسمى اليوم بمفردات الحياة اليومية العابرة) .

ومن العبارات التي قد تخدش الذاهب إلى مذهب الصنّعة ما جاء من أنّ الأصمعي وهو شيخ "ابن سلام" كان يعجب بشعر النابغة

الجعدي، من أنّ شعره كان على ضروب، فدلّ اختلافه على جودة طبع صاحبه .

يقول: "وكان الجعدي مختلف الشعر مغلّبا ، فقال الفرزدق : مثله مثل صاحب الخُلْقان : ترى عنده ثوب عصب ، وثوب خز، وإلى جنبه سمل كساء ، كان الأصمعي يمدحه بهذا وينسبه إلى قلة التكلف ، فيقول عنده خمار بواف ، ومطرفٌ بآلافٍ(بواف بدرهم وثلث) (١/ ١٢٤-١٢٥)

هذا لا دلالة فيه على أن ابن سلام قدّمه لما اعترى شعره من التفاوت في التجويد المستدل به بعضهم على تركه التكلف ، بل إن ابن سلام ، وقد جعله أول الثالثة من فحول الجاهلية ، وهو المخضرم مع ابي ذؤيب والشماخ ولبيد قد نظر في شعره أمرا أخر دلنا عليه : كان شاعرا مفلقا ، وكان أجود قريحة شعرمن أوس بن مَغْراء الذي جعله ابن سلام آخر الطبقة الثالثة من الإسلاميين ، ولم تأت ترجمته لخرم في المخطوطة التي حقق عليها الكتاب .

فالجعدي عند ابن سلام شاعرمفلق جيد القريحة أوصف الناس للفرس ، فهذه الثلاثة هي التي قدمته ، فكان في الطبقة الثالثة الجاهلية ،وليس من أنّه ترك الصّنعة لما جادت به قريحته ، ،ولو انّه أخذ من الصنعة ما أخذ من وصف الفرس ، لكان عندي جديرًا بما اقامه فيه ابن سلام مجاورًا الشماخ وابا ذؤيب ، ولربما قدمه ابن سلام فجعله مكان بشربن ابي خازم في الطبقة الثانية

ومقالة " الأصمعي" في تفضيله "الجعدي" لا آخذ بها،كيف يكون اشتمال شعره على خمار بواف،ومطرف بألاف آية على قلة التكلف ؟ أيقال إن اختلاف الشعرِ جودة آية ترك التكلف أم آية ترك الصنعة التي هي ثمرة قريحة وطبع مهذب .

الصنعة التي هي ثمرة القريحة وتجويد الطبع أساس من أسس الشعر الذي هو السحر . وما دون ذلك ليس بأهل أن ينسب إلى الكلمة الساحرة . ،ولا أن يكون ديوان العرب وعلمهم .
وقد صرح "حازم بأنّ « الطباع أحوج إلى التقويم في تصحيح المعاني والعبارات عنها من الألسنة إلى ذلك في تصحيح مجاري أوخر الكلم تستغني بصحة طباعها وجودة أفكارها عن تسديد طباعها وتقويمها باعتبار معاني الكلام بالقوانين المصححة لها ، وجعلها ذلك علما تتدارسه في أنديتها ،ويستدرك به بعضهم على بعض ،وتبصير بعضهم بعضًا في ذلك »(1)
والعناية بصنعة الشعر المنبثقة من قريحة مواتية وطبع خلاق يمنح الشاعر الفحل سمة علِيّة من سمات الشعر الجواد : شدة متن الشعر وشدة أسره أي تماسك بناء الشعر، فإن متن الشعر سبك جمله وتعلق كلماته وعباراته ببعضها ،ومن هذا كان تفضيل الشماخ ، فهو شديد متون الشعر ،وهو أشد أسر كلام من " لبيد" وفيه كزازة (اي يبسًا وتقبضا ونضوب ماء الشعر)،ولبيد أسهل منه منطقا (١/ ١٣٢) وعبد الله بن قيس الرقيات كان اشد قريش أسر شعر في الإسلام بعد ابن الزّبعرى(٢/ ٦٤٨) ومزاحم بن الحراث العقيلي كان شديد أسر الشعر حلوه.(٢/ ٧٧٠)

◆◆◆

✱ = التميز في التصوير الشعري .

الشعر صورة ،وذلك آية اقتدار الشاعر على رؤية الأشياء على غير ما تراها عيون الآخرين فإذا به يقدم لنا في شعره صورة الشيء

---

(1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ١٩

منعكسة في قلبه فإذا هي طريقة لم ترها عيون الآخرين ،وقد كان امرئ القيس ذا منزل عَلِيّ في التشبيه،فإنّه" كان أحسن أهل طبقته تشبيها ،وأحسنُ الإسلاميين تشبيها ذوالرمة"(١/٥٥)
وفي التشبيه اقتدار على جمع ما تلاحظ في خفاء ، وما تواصلت أرحامه في لطف وخفر ، والشاعر المشبه إنّمايصور لك ما عميت عنه الأنظار من وثيق العلائق بين المكنونات ، وأبرزها كما رأت بصيرته وسكنت فيها ومازجتها ، فإذا هي غير التي رأت العين ،وإن لطفت ،فهو بتصويره يمنح جليل لطفها جميل طرافتها،فيجمع للنفس رافدين من عظيم الروافد النفذ فيها أثرها: اللطف والطرافة القدرة على التصوير عنوان الشاعرية ، وإن كان الذي يصوره الشاعر من فتات الحياة ،المهم أن يكون تصويره مبرزا في بصيرة السامع غير الذي أدركت عينه ، فكأنّه لم يرَ من قبلُ ولم ينظرْ ، فيرى الكونَ أوّل مرّةٍ ، فيقبل على الحياة لتجددها في صور الشاعر،وإذا ما تجدّدت صور الكون والحياة تجدّد إحساس السامع لها فأقبل على الحياة ،وتلك من أعلى رسالات الشعر في الحياة : أن يريك الحياة في كل مرة على غيرما كنت قد رأيت اوعلمت . وهذا ما تراه قائما في بيان ابن سلام فضائل بعض الفحول :
كان عبيد بن الأبرص متميزا في وصف المطر(قال ذو الرمة :من أحسن الناس وصفا للمطر؟ فذكروا قول عبيد:

دان مسفٌ فُوَيْقَ الأرضِ هَيْدَبُهُ ◆ يكادُ يدفعه من قام بالرّاحِ
فمن بنجوتِهِ كـمنْ بِمـحْفَلِهِ ◆ والمستكن كمن يمشي بقرواح

فجعلها يونس لعبيد، وعلى ذلك كان إجماعنا) (١/ ٩٢) ([١])
والنابغة الجعدي كان أوصف الناس لفرسٍ (١/ ١٢٨)
والأعشى كان من أكثر الشعراء وصفًا (١/ ٦٥)
وقد رأينا ابن سلام يبالغ في ذكر فرائد امرئ القيس في التشبيه، (١٨١) وهوعماد الوصف كما سبق، فهو الذي فتح للشعراء سبلا

(١) القصيدة لم تتفق كلمة الرواة وأهل العلم بالشعر على نسبتها إلى (عبيد) فمنهم من نسبها إلى "اوس بن حجر" كما فعل ابن قتيبة والأصفهاني، وابن عبدربه ،وما ذكر هنا من البيتين هما متباعدان في ديوان (عبيد)
والصورة التي جاء فيها وصف المطر كالتالي :

٦- يامـــن لبرقٍ ابيتُ الليل أرقبه	من عارضٍ كبياض الصّبح لمّاح
٧- دانٍ مُســـفٍ فويقَ الأرض هَيْدبُهُ	يكـــاد يدفـــعه من قـــام بالراح
٨- يـنزعُ جلدَ الحصَى أجشُّ مبتركٍ	كأنّـــه فاحـــصٌ أوْ لاعبٌ داح
٩- كـانّ ريـقهُ لمـّا عـلا شطـبًا	أقـــرابُ ابلقَ ينفي الحبل رمّاح
١٠- فالتـجَّ أعـــلاه ثـُم ارتـجَّ أسفله	وضاق ذرعًا بحمل الماء مُنصاح
١١- كـأنّما بيـن اعـلاه وأسـفله	ريـــطٌ منشّرةٌ أو ضوءُ مصباح
١٢- كـأنّ فيه عـشارًا جـلةً شـُرُقًا	شُعثًا لهـــاميمَ قدْ همّت بإرشاح
١٣- بـحٌّ حنـاجرُها هُـدلاً مشافرُها	تُســيم أولادها في قرقرٍ ضاحي
١٤- هبّت جنوبٌ بأولاهُ ، ومال بـه	أعجـــازُ مزنٍ يسُحُّ الماءَ دلاّح
١٥ - فمن بنـجوته كمـن بمحفـله	والمستكـــنّ كمن يمشي بقرواح
١٦ - فأصبح الروضُ والقيعان مُمْرعةً	مِنْ بين مُـرتَفقٍ فيه ،ومِنْ طاح

صورة مفصلة يتخذ التشبيه فيها مجالا عريضًا كأنّه الأسلوب المهيمن على سائر الأساليب الأخرى سواء ما كان من قبيل التركيب أو الصياغة او التحبير،وأنت تلحظ عنصر الحركة أيضًا يناظر التشبيه في اتساع مجاله(البرق- أرقبه – عارض –لماح – دان مسف – فويق هيدبه – يدفعه – قام – ينزع – مبترك – فاحص رعب – داح –الريف – علا- يمفي – رماح – ارتج – ضاق - منصاح – أعلاه وأسفله - منشرة – ضوء – همذت – هدلاً - يمشي - ممرعة – طاح)
كذلك تكاثرت عناصر الحركة وتنوعت في الصورة ،وليس يخفى عليك أن تصوير الحركة أشق على الشاعر من تصور اللون والصوت
ويأتي في الصورة من بعده عنصر اللون ، ثُم عنصر الصوت .

فيه،فشبه النساء بالظباء،والبَيض،وشبه لبخيل باعِقبان ، والعصِيّ ،وقيد الأوابد وأجاد في التشبيه (١/٥٥)

◆◆◆

✸ = التميز في المنزع الشعري بطُرفة موضوعاته ومعانيه

قال "خالد بن صفوان"في شأن الكلام كله شعره ونثره :" خير الكلام ما طَرُفتْ معانيه وشرفت مبانيه ،والتذته آذان سامعيه" والشعر أولى بذلك كله"

وقد كان من أمرئ القيس فضل في هذا فإن له من الإطراف في المنزع والموضوع ما فاق به غيره .

يقول "ابن سلام":" ...سبق إلى أشياء ابتدعها ،واستحسنتها العرب ،واتبعته فيها الشعراء"(١/٥٥)

فهذا يدلك على أن الشاعر قد اتسعت مخيلته ، ونفذت بصيرته ، وملك القدرة على أن ينعتق من سطوة ما سبق من صنعته ، فملك موهبته ، ولم تملكه ، فالوقوف على باب من أبواب المعاني دون غيره ، أو ضرب من ضروب التصوير لا يطوف إلا في فلكها آية على ضيق العطن ، وعجز البصيرة عن تحلق في آفاق آخرى .

وليس هذا من آيات الفحولة في شيء . ولهذا فضل النقاد " أبانواس" على " مسلم بن الوليد " لما تميز به " أبو نواس" من التصرف في فنون القول

ومما احتج به من يقدم " جريرًا " على الفرزدق" أن جريرًا كان أكثر فنون شعر من الفرزدق (٢/٤٥٦،٣٧٤) وإن كان الفرزدق قد تفنن في مجلات هجاء جرير وهذا تتولد منه خصيصة أخرى :

= كثرة الطوال الجياد : هذه الخصيصة آية على اقتدار الشاعر ،وامتلاكه أدوات الإبداع ،ولذا نجد " ابن سلام" يفضل الأعشى بذلك ، فهو أكثرهم طويلة جيدة ،ويفضل علقمة بن عبدة.
وكثرة الجياد الطوال ليس معيارا خارجيا بعيدا عن الأساس الفني بل هو من معدنه فإن طول نفس الشاعر دال على تمكنه فإن غير قليل يمكن ان يقول البيت الجيد والمقطوعة الجيدة ثم تفرغ ملكته لقرب غورها ، ولكن الذي يمتد نفسه مجيدا ويبسط الصورة الشعرية ويحيط بمعانيه وينوعها ويفصلها فإن ملكته وطبعه وقريحته أبعد غورًا ،ولا تكاد تجدُ مطيلا مستمرا في جوده وسخائه الإبداعي إلا من قوته واقتداره.
وتعدد الطول الجياد آية على أن الواحدة الطويلة الجيدة لم تكن نفثة نفسها فاستفرغ ،فالشاعر الذي يستمر عليه عطاؤه من الطول الجياد هو ذو المعين الذي لا ينضب ،وذلك أدل على الشاعرية .
وكثرة الجوال الجياد تلزمه خصيصة وسمة شعرية أخرى تتمثل في تنوع النغم الذي يتغنى به الشاعر ،وهي النظم في الأبحر المختلفة وذلك ما تراه في تقديم الأعشى فهو "أكرهم عروضا ،وأذهبهم في فنون الشعر ،واكثرهم طويلة جيدة ،وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا"
وهذا فيه دلالة على تمكن الشاعر من التغني بضروب من النغم يتيح له المواءمة بين أغراضه ومعانيه ومقتضياتها النفسية وما يملكه من ضروب التغني ، فليس كل معنى تتجاوب سماته النفسية مع كل أنواع التغني مما يحقق الثراء الإيقاعي في القصيدة .
ومن ذلك ما كان من شأن الأخطل فإنه كان يقيم أبياته على إيقاع ياذن بأن تخرج من كل بيت بيتا آخر على وزن آخر وقافية أخرى

فيجمع البيت في إيقاعه ضروبا من التوقيع النغمي للشعر مما يدل على أنّ الشاعر في بسط نسيج شعره لايكون عبدا لسلطان الوزن والقافية وليس كثرة التنوع وظهور الطرفة والتمكن في الإكثار من الطوال الجياد بمغن أن يكون للشاعر الفحل ما يمتاز به على من قارنه وسامته ، ولهذا كان من آيات الفحولة

◆◆◆

= تميزالشاعر بمذهب في ضرب من ضروب المعاني :

على نحو ما نرى الراعي النميري ذا مذهب في الهجاء، وهو من طبقة جرير عند ابن سلام : (الأولى الإسلامية) فقد كان لايحتذي . يقول عنه "ابن سلام" : " كان يقال له في شعره : كأنّه يعتسفَ الفلاة بغير دليل ، أي انه لايحتذي شعر شاعر ، ولا يعارضه "

وكان من مذهب "كثير" عزة الاستقصاء في المدح

وكذلك يتسم الشاعر الفحل ، بأنه يتسنم مدارج العبقرية فيجيد في أغراض خاصة فوق إجادته في بقية الأغراض الشعرية ، وذلك على نحو ما نراه فيما رواه "ابن سلام" من تفضيل يشار لجرير على الفرزدق من ان جريرا كان يحسن ضروبا من الشعر لايحسنها الفرزدق . (٢/ ٣٧٤)

ومن نحو تقديم كثير على جميل وإن كان كثير يتقول وجميل في باب النسيب وحده مقدم على أصحاب النسيب جميعا من أن لكثير في فنون الشعر ما ليس لجميل ، وإن كان جميلٌ أصدق صبابة من كثير . وكذلك على نحو تفضيل جرير في الفخر والمديح والنسيب والهجاء على الفرزدق ، وكذاك الأعشى فضل على غيره في هذه الأغراض .

◆◆◆



= الحصافة

وذلك ما تراه في تقديم زهير فقد كانت أشعاره حكيمة دالة فهو أبعدهم من السخف . يقول ابن سلام : " وقال أهل النظر : كان زهير أحصفهم شعرًا وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ... "

والحصافة في مدلولها اللغوي جودة الرأي وإحكام العقل ، فالحصيف عندهم من كان محمكم العقل،والحصافة تقابل الحمقيقول الشاعر :

حديثك في الشتاء حديث صيف وشتويّ الحديث إذا تَصيفُ

فتخلط فيه من هذا بهذا فما أدري أأحمق أم حصيف

ومعنى هذا أن الشعر الحصيف ما كان ذا إحكام في مضامينه ، فلا تشتمل صوره الشعرية على ما فيه خلل في المعني المراد تصويره ، فهو عيار من عيار المعنى ،وكأن على الشاعر أن يعنى بفحص المعاني التي يريد تصويرها ،فلا تشغله صنعة التصوير عن النظر فيما يوقع تصويره فيه . وهذا لفت إلى قيمة المضامين التي يصورها الشعر،وأنها مناط عناية .

وربما كان امرؤ القيس لا يعنى أحيانا بحصافة ما يعمد إلى تصويره .

وزُهَير هو الذي وسم بهذه الحصافة ولم يكن لغيره ما كان له من تلك السمة ، ولعل هذا ما جعل الفاروق عمر يفضله كما هو غير خفيّ .

◆◆◆

ثبت أهمّ المصادر والمراجع

- ابن سلام وطبقات الشعراء للدكتور : منير سلطان ٠ ط: ١٩٧٧ - منشاة المعارف الاسكندرية
- أسرار البلاغة - عبد القاهر. تحقيق : محمود شاكر- ط: المدني - الخانجي
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري : طه أحمد إبراهيم : - بيروت
- ا لخصائص لابن جني - تحقيق : محمد على النجار- الهيئة المصرية العامة للكتاب-سلسلة تراثنا
- دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث - بدوي طبانة- -ط: ١٩٦٥ مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ٠
- دراسة في مصادر الأدب : الطاهر أحمد مكي- ط: دار المعارف-١٩٩٣
- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني تحقيق : محمود شاكر- ط: المدني
- طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري - الكتور: جهاد المجالي - ط : ١٤١٢ -دار الجيل - بيروت
- طبقات فحول الشعراء - ابن سلام الجمحي تحقيق : محمود شاكر- ط: المدني
- عيار الشعر لابن طباطبا تح: زغلول سلام : - ط: ١٩٨٠- الاسكندرية ٠
- في النقد الأدبي : عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية بيروت - ط :(٢) سنة ١٩٧٢

- قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام – : المدني سنة ١٤١٨– مكتبة الخانجي
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنّي :– تح: الحبيب الخوجة : دار الغرب الإسلامي – بيروت .
- الموازنة بين شعر أبي تمّامٍ والبحتري للآمدي – تحقيق: السيد صقر– ط: الرابعة – دار المعارف – مصر
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني : – المطبعة السلفية ١٣٨٥
- نظرية الشعر – مرحلة مجلة شعر القسم الثامي – تحرير : محمد كامل الخطيب – دمشق – وزارة الثقافة ١٩٩٦
- النقد الأدبي : أحمد أمين – ط: الرابعة /١٩٧٢ – مكتبة النهضة المصرية .
- النقد الأدبي : أصوله ومناهجه – سيد قطب –دار الفكر العربي – القاهرة
- نقد الشعر لقدامة بن جعفر تح: خفاجي – ط: ١٤٠٠ مكتبة الكليات الأزهرية
- النقد المنهجي عند العرب – محمد مندور– دار نهضة مصر بالفجالة .
- نمط صعبٌ ونمطٌ مخيف : محمود شاكر –ط المدني – ١٤١٦

فهرست القضايا

في ذلك - قيمة العيار السلبي - سبب صعوبة الكشف عن جوهر الشعر - ابن سلام لم يضع مفهوما للشعر

نظرة في مفتتح كلام ابن سلام في الطبقات -: وجه قوله "ذكرنا" وقوله" فبدأنا بالشعر " – النظر في قوله " وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لاخير فيه " : دلالة (الواو) في " وفي الشعر .. مجالات النظر لمعرفة شيء عن جوهر الشعر عنده . مقالته فيما رواه ابن إسحاق من أشعار - بيانه منزل ابن إسحاق في العلم وفي الشعر - دلالة قوله : (وليس بشعر) دلالة قوله (إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ)

مقالته (وفي الشعر مصنوع . . .) (٤٢)

علاقة هذه الفقرة بما قبلها وما بعدها - رأي شاكر في نسق الفقر - سمات البيان المنفي عنه الشعر عند ابن سلام - قوله (مصنوع. . .) موقعه الإعرابي وأهمية بيانه – مراده بالمصنوع – مراده بالمفتعل - علاقة المفتعل بالمصنوع ووجه الترتيب في الذكر - مراده بالموضوع وعلاقته بما قبله - معنى قوله (لاخير فيه) ووجه انتفاء الخيرية عن النظم المصنوع المفتعل الموضوع - علاقة قوله (ولا حجة في عربية) بقوله لاخير فيه - اهمية التوثيق النسبي للشعر - ضرر الاستهانة بذلك - فراسة الشعراء بانساب الشعر- ما كان من ذي الرمة والفرزدق وهشام المرئي - معنى قوله في النظم المصنوع . . (لاحجة في عربية) المراد بالعربية هنا - وجه استفتاح ابن سلام الفقرة الرابعة عشر بالقول في العربية والنحو - ما بين الفرزدق وابن أبي إسحاق - الفرزدق يستفتح مسالك الإبانة - معنى (علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا) – ما كان من بشار في شأن تباصر سلم بن قتيبة بالغريب – الغريب ضربان غريب لغة وغريب صنعة - أبو تمام يصدم السامع بما لا يألف - تاويل قول سيبويه (يجوز في الشعر ما لايجوز في الكلام) وقوله (ليس شيءٌ يضطرون

◆◆◆







تم بحمد الله تعالى في يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الآخر عام خمسة وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة في حيّ (حدائق الزيتون) بالقاهرة. والحمد لله رب العالمين

وكتبه : مَحْمُود توفِيق مُحَمّد سَعد

رقم الايداع : ١٦٨٦٩ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : I . S. B. N . 977 – 17- 1733 -2